# روايات الحب

٣٠ مليما

فارس قسطلة

الجزء الثاني

# فارس قسطلة


للكاتب الكبير

صمويل شيلا بارجر


عرب الأستاذ

محمود مسعود

الجزء الأخير


مطابع دار الجيب بالقاهرة

## القسم الأول

### الفصل الأول

وقف الجنرال هرنان كورتيز مع قواده فوق قمة المعبد المصري الأكبر يشرفون على مدينة التنوشتيتلان تحت أقدامهم بطرقاتها وقنواتها وقصورها ومعابدها الصغرى ، وقد فرغوا اليوم من تحطيم صنم الإله الأكبر فوق قمة المعبد ، فدالت بذلك دولة الوثنية والشرك ، بعد أن دانت لهم من قبل عشائر الازتيك بالطاعة وانحنت لهم هامة الأمبراطور مونتزوما العظيم ..

ولم يتمالك القائد العام للحملة الاسبانية أن قال وقد ازدهاه النصر :

— أرأيتم يا الله أيها السادة مدينة أخرى تضارع هذه المدينة العظيمة ؟ . أقسم لكم أن البندقية ليست بجانبها شيئاً مذكوراً !.

وفي الحق أن قواد كورتيز لم تفتهم عظمة المدينة التنوشتيتلانية بعد مقام خمسة أشهر بين ظهرانيها .. وقال ( أوليد ) يعبر عن احساسه الخاص تعقيباً على كلمة القائد العام :

— إني لم أر مدينة البندقية .. لكن مدينة التنوشتيتلان هذه تفوق في اسبانيا مدن ( أشبيلية ) أو ( طليطلة ) أو ( سلمنكة ) ، مع فارق واحد هو أن هذه المدينة الوثنية تدين بالطاعة لابليس ، ويخيم عليها سكون غريب يخفي وراءه شراً مستطيراً !.

وكان أوليد في هذا الكلام معبراً عن شعور رفاقه القواد . فان المدينة رغم جمالها الهندسي وتنسيقها البديع كانت أشبه بالقبر المترس الذي يخفي تحت مظهره الأخاذ ضراوة الوحش وشوك من إهابه رواتج السم الأسن اللسوع .. ومن كان في شك من هذا فلينظر كما نظر هؤلاء القواد إلى الميدان الكبير تحت هذا المعبد المصري الرئيسي حيث علقت آلاف الجماجم البشرية شاهدة على عديد القرابين التي قدمت على هياكل الأصنام ، وحيث تكدست أكوام العظام مخلفة من بقايا الولائم المروعة التي كان طعامها لحم بني الانسان !..



وقال كورتيز رداً على أوليد :

— الوقت أمامنا متسع .. وعلى غرة سوف نستطيع أن نطهر هذه المدينة تطهيراً من أرجاس وثنيتها .. تذكروا أيها الاخوان ما كنا عليه منذ عام واحد فقط ، وما نحن عليه الآن .. ألم نكن في العام الماضي نكافح اليعوض على الساحل في أولوا ، ننظر في دهش وذهول إلى ما كان يتصدق به علينا الامبراطور ( مونتزوما ) من هدايا الذهب ، متضورين جوعاً أو نكاد ، مجردين من الأحلاف والموالين ، غير مستندين إلى قاعدة ما في الشاطئة الساحلية . لا ندري أين نولي وجوهنا في حلتنا الجبارة الخطرة ؟ .. أما الآن ...

وبسط كورتيز ذراعه يلوح فيما حواليهم إلى مدينة التنوشتيتلان ووديانها الخصيب وضواحيها العامرة وجبالها الشاهقة .. وكانت إيماءة بليغة شاملة للمكان والزمان ، أذكرتهم بما طواه عاتمهم الماضي الحافل من مخاوف ، وخطط ، وأزمات ، وجهود ، وزحف ، وحروب ، وملاحم ، وانتصارات ، حتى تمثلوا في هذه الذكرى ما كان من انشاء قلعة ( فيلاريكا ) ، وإرسال الكنز الذهبي في سفينة خاصة إلى اسبانيا : واغراق باقي سفن الحملة جميعاً ، والزحف عبر الجبال ، وللمعارك العنيفة مع قبائل ( تلاسكالا ) لكي يتخذوا من هؤلاء المحاربين الأشداء أحلافاً ضد أمة الازتيك التنوشتيتلانية ، وللذبحة الرهيبة في شولولا التي ما برحت ذكراها ماثلة في الخواطر ، واقتحام آخر سلسلة في الجبال قبل الاشراف على هذا الوادي الجميل بمدائنه الزاهرة !.

ومنذا الذي حقق هذه المعجزات جميعاً ؟ .

أرجالة من الرجال البيض اقتحموا امبراطورية بأسرها !.

وقد تلقتهم أمة الازتيك التنوشتيتلانية وكأنهم أضياف آلهة ، فتوسلوا إلى قهرها بأساليب شتى من الحيلة والدهاء السياسي والتمويش والركون إلى القوة المجردة ... ولن ينسى بدرو دي فارجاس كيف تم لهم اختطاف الامبراطور مونتزوما من بين أرجاء قصره الملكي ... فان سلامة الحملة وضمان السيطرة على الأقليم اقتضيا أسر امبراطور الأزتيك ، وتم ذلك في خلال زيارة قام بها القواد للامبراطور في قصره ، وسرعان ما داهموه بغتة وطوقوه ثم خيروه بين الموت العاجل والأسر ، فآثر مونتزوما

ان يتظاهر طالما بمرافقة الشيوخ البيض إلى أماكن الضيافة التي أعدها لهم ، وقد انقضت خمسة أشهر وما زال الامبراطور نزيلا عندهم في الظاهر ، ولكنه في الواقع أسير بين أيديهم يحركونه كيفما يشاءون ...

أما اليوم فقد كان في جيبه أروع من سائر الاعياد التي انتظمها تاريخ الحملة المظفرة بل كان في مغزاه أثمن من تلك الكنوز الطائلة من الذهب والمجوهرات التي أزجاها مونتزوما لآسريه والتي كانت مكدسة في الوقت الحالي في غرفة الكنز بقصر الأسبان ... فقد ارتقى كورتيز مع قواده إلى قمة المعبد المحرمي الأكبر وحطم كبير الآلهة في حفل شهده الجيش ، فكان ذلك نذيراً بالقضاء على الوثنية وعلى تلك المراسم البشعة التي كان طابعها إزهاق النفوس البشرية وتضحيتها قرابين للأصنام ...

وكذلك تم للحملة الاسبانية ليس فقط أسر مونتزوما والاستيلاء على كنوزه ، بل أيضا تحطيم أصنام الأزتيك والقضاء على آلهتهم ، ولم يبق أمام كورتيز بعد هذا إلا أن يتولى توزيع الغنائم والأسلاب وتحويل بلاد الأزتيك هذه إلى أسبانيا الجديدة ...

والواقع أن كورتيز لم يلبث أن قال وقد ألقى نظرة أخرى على المدينة تحت أقدامهم:

— بقيت من مدينة عظيمة ، فيما ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف من السكان ، وهي في قبضة يدنا !.. ما أنفسها من جوهرة نهديها إلى جلالة الملك !..

ولم تلبث حماسة القائد العام أن سرت إلى نفوس أعوانه الضباط ... فراحوا يتصورون أنفسهم بين الحال وقد تلقاهم ملك أسبانيا يوصفهم نبلاء بعد أن ضموا إلى رقعة ملكه أسبانيا الجديدة هذه ...

ثم أخذ الجميع يهبطون مدرجات المعبد المحرمي بعد استيفاء مراسم الاحتفال عائدين إلى ثكنات الجيش ، فما بلغوا ساحة المعبد حيث كان الهنود الحمر متجمهرين آثر الضباط أن يسيروا على هيئة طابور مزدوج دفعا للمفاجآت ... ذلك أن تحطيم الأصنام والقضاء على آلهة الأزتيك لم يكن ليمر دون أن يعقب وراءه ذيولا ، وقد تجلى هذا في النظرات العدائية المنبعثة من أعين الهنود المقتدين على رغم هدوئهم الظاهري ، وفي وجود كثير من محاربي الأزتيك بينهم ، وفي انبثاث كهنتهم بين صفوفهم يروحون ويغدون في حركة غير عادية ...



وفي الحق أن القواد الأسبان لم يكادوا يجتازون نصف المسافة إلى ثكناتهم في القصر الذي كان مقراً لوالد مونتزوما ، وهو غير بعيد عن المعبد ، حتى استحال هدوء الهنود الحمر إلى دمدمة متعالية ، بيد أن الضباط مضوا يشقون طريقهم بينهم شقا وقد شهروا سيوفهم ولبسوا أقنعتهم الفولاذية . فكان في هذه القاهرة ما حال دون ثوران الهنود وبلوغهم حد الانفجار العاصف ، وأفسحوا للضباط الطريق مكرهين تنبعث من أفواههم بعض الصيحات ... فما بلغوا القصر افتتحت لهم البوابة الضخمة ، فانكشفت من خلفها الساحة الكبرى وبها رجال الحرس في مواقعهم والمدافع منصوبة في مواضعها ثم أغلقت البوابة من خلفهم تاركة الأزتيك في شبه غليان ...

ولم يفت كورتيز أن يقول لهذه التاسبة وهو يرفع خوذته :

— يبدو لي أن أصحابنا الهنود هؤلاء في حاجة إلى درس ، ودرس جاسم ... لكن هذه الثاورة التي أظهرناها لهم فيها الكفاية ، فاني أكره سفك الدماء في غير ما ضرورة ...

## الفصل الثاني

كان القصر الذي اتخذه كورتيز مقراً لأفراد الحملة مؤلفا من بضعة مبان متجاورة يحوطها جميعا سور حجري حيك به فتحات نصبت في بعضها المدافع ووقف خلف بعضها والرماة استعداداً لكل هجوم يقع من الخارج ... وكانت جملة العسكريين في مباني القصر من أفراد الحملة لا يزيدون إلا قليلا على الثانين ، مع بعض مئات آخرين من أحلافهم من قبائل تلاسكالا ... أما باقي الحملة وقوامهم مائة وخمسون فقد أوفدهم كورتيز تحت قيادة الكابتن بلاسكو دي ليون لارتياد الاقليم واستكشاف موارده من التاجم والزارع ومرافىء السفن وما إليها ...

ولما دلف كورتيز وضباطه إلى ساحة القصر الكبرى بعد أن شقوا طريقهم عنوة وسط الهنود الصاخبين الساخطين ، ساروا مسافة بين أخلاط من محاربي قبائل تلاسكالا أصناف المرأة العسكرين في الساحة ، وأفواج من النساء الهنديات العاملات في خدمة الجيش ، وعشرات من العبيد الأرقاء ، وأفراد من أشراف الأزتيك القائمين على خدمة مولاهم الامبراطور مونتزوما التابع في أسر الغزاة البيض بين أرجاء قصر أبيه ، حتى

إلا بلغ كورتيز ورجاله المبنى الأخير القائم فى أقصى الساحة ، تفرقوا كل إلى مكانه الخاص ...

ولما وصل بدرو دى فارجاس إلى غرفته ألفى كاتانا يبرز منهمكة فى فحص شعر جوان جارسيا وهى تتدد بخشونته وتشبهه بأسنة الحراب وهو بين يديها كالحمل الوديع .. وفى الحق أنه منذ أن سقط أخوها مانويل بيرز صريعا فى الملاحم الروعة التى اشتبكت فيها الحملة أثناء زحفها ، انخذت كاتانا من جارسيا أخا ثانيا لها .. وكان بدرو سعيداً بهذه الصلة الوثيقة التى تجمع بين محبوبته كاتانا وصديقه الحميم جارسيا ..

ولما فرغت كاتانا من مهمتها الطريفة بين تشاحك الثلاثة ، أعد لهم طعام الغداء فتناولوه وهم يتناقشون فيما جاء به بدرو من أنباء روح التمرد والتحفز التى أخذت تختمر بين ( الأزتيك ) فى المدينة ويعقبون عليها كل بما يعن له .. وبينما هم يستريحون فى فترة القيلولة إذ أقبل أحد خدم كورتيز على عجل وخاطب بدرو قائلا وهو يلهث :

— إن القائد العام يدعوك اليه يا كابتن دى فارجاس .. فقد دعى إلى مقابلة الامبراطور مونتزوما ، وهو يريدأن يذهب اليه معك ومع الضباط (أوليد) و(الفارادو) و ( مارين ) .. وقد أبلغنى أن الموضوع هام عاجل ، وأنه يرغب أن تحمل سلاحك ..

وفى الحق أن بدرو قد زادت حظوته لدى القائد العام بعد مصرع اسكلانتى قائد قلعة فيلاريكا وتعيين ساندوفال مكانه .. ولعل كورتيز كان يرى كذلك من تقريب بدرو اليه الى أن يفيدمن نفوذ أسرته فى أسبانيا لتعزيز مشروعاته القبلة .. يضاف إلى هذا أن بدرو نفسه قد أبدى من البسالة والاقدام ما جعله فى طليعة ضباط الحملة ..

وكان كورتيز واقفاً عند مدخل مقر قيادته حين خف اليه بدرو مع الضباط الآخرين وهم الفارادو البدين الأنيق ، وأوليد الشبيه بالصقر ، ومارين الفارس الشاعر ذو اللحية الحمراء .. وإن هى إلا برهة حتى انضمت اليهم الهندية الفتية باسم (دونا مارينا) ، وهى فتاة من أمة الأزتيك المكسيكية بيعت وهى صغيرة إلى أحد تجار الرقيق ، ثم قدمت إلى كورتيز مع بضع فتيات أخريات هدية من إحدى القبائل الساحلية عربوناً على المسالمة .. وقد أصبحت دونا مارينا المترجمة الرسمية للحملة ، وزادت قيمتها الآن فى موطنها الأصلى هذا فى بلاد الأزتيك ..



وقال كورتيز لضباطه فى مقدم الفناء :

— الآن وقد حضر ( لسانا ) ، هلموا بنا لقاء امبراطور الوثنيين ..

ثم التفت إلى فتى كان أطلقه بخدمة الامبراطور يدعى ( أورتجويلا ) وأردف قائلا :

— تعال معنا .. وإذا رأيتنى أضع إبهامى فى الحزام هكذا ، فعليك أن تسرع خلسة إلى الكابتن ( تايا ) قائد الحرس وتطلب اليه بأمرى أن يحمل الجيش السلاح ويقف على قدم الاستعداد ..

ثم أنشأ كورتيز يتقدم على رأس ضباطه الى المبنى الأوسط الذى أعد لمقام الامبراطور مونتزوما طيلة بقائه أسيراً لدى الأسبان ..

وصعد كورتيز ورجاله سلما عريضا إلى مدخل البهو حيث وقف جنود أسبانى شاهرى السلاح .. أما فى البهو الفسيح الذى دلفوا اليه ، فقد كان الجو مطبوعا بالطابع الأزتيكى البحت .. فروائح البخور النفاذة تعبق فى أرجاء المكان ، ورؤساء القبائل وأشراف الأزتيك والضباط يروحون ويغدون فى ملابسهم الوطنية الزاهية وحليهم الرنانة ورديهم القانون .. والكهنة بصوحهم الأسود يتقلون إلى الامبراطور تبليغات الآلهة .. ذلك أن مونتزوما وإن يكن فى الواقع أسير الأسبان ولا يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر إلا فى حراسة جنودهم ، فانه آثر أن يبدو وكأنه يقيم بينهم مختاراً طالما سترا لمظاهر بين قومه ، وقد اصطنع هذا الجو حوله مبالغة فى الايهام ، ولكن كورتيز كان من خلفه يحركه كيفما يشاء ويوجهه الوجهة التى يريدها ..

وبينما كان كورتيز وضباطه يجتازون البهو الفسيح الأرجاء وقد وقف الهنود الحمر على الجانبين يبادرونهم بنظرات جامدة عدائية على غير المألوف ، إذ استرعى نظر بدرو بينهم هندى طويل القامة ، أشم الأنف ، فى أنفه حلية ذهبية ، وعلى رأسه إكليل من الريش دلالة المكانة بين قومه ، وحول وسطه حزام مزدان بريش كثيف .. وسرعان ما عرف فيه بدرو شخص كونتل الهندى الهارب من خدمة ديجو دى سيلفا فى بلدة جاين بأسبانيا .. فلم يتمالك بدرو أن رفع يده وهتف ينادبه باسمه .. ورغم أن الهندى ركز نظراته فيه برهة ، فقد بدا أنه لم يعرفه ، ثم أشاح عنه .. فقال مارين باسماً :

— أهو من أصدقائك ؟

فتمتم بدرو :

— حسبت أنى أعرفه .. لكن هؤلاء الهنود الحمر متشابهون كحبات الحمص !

ودلف كورتيز وضباطه أخيراً إلى قاعة اجتماع مونتزوما امبراطور المكسيك، حيث جلس على عرش منخفض شامخ الظهر فى أقصى القاعة.. وإذا هو متوسط الطول قوى البنية فى الأربعين من عمره ، ذو لحية خفيفة وشعر مسدل حتى الكتفين.. وكان يضع على هامته تاجا من ذهب ، وفى أذنيه قرط من اليشب . وفيما عدا ذلك كان لباسه أدنى إلى البساطة .. وكان يختلف عن بنى جلدته من الهنود الحمر ذوى اللامح الجامدة النحيفة بمحياه الناطق المعبر الذى اجتمعت فيه دلائل الطيبة والرصانة ، وشاعت فى قسماته أمارات النباهة البالغة ..

وكان مونتزوما يعرف آسريه واحداً واحداً لطول مقامه بين ظهرانيهم ، وكانوا يأنسون اليه لرقة شمائله حتى أطلقوا عليه اسم مونتزوما العظيم ، إلا نفراً منهم بينهم كورتيز وبدرو ، كانوا يرتابون فى مودته ويعدونها من قبيل الختل والمخادعة حتى تسنح له الفرصة فيضرب ضربته الكبرى ..

ومهما يكن فان مريدى الامبراطور والمرتابين فيه من الأسبان ما لبثوا جميعاً أن توسموا فيه اليوم تغيراً ملحوظاً .. فانه لم يقابلهم بابتسامته المعهودة ، بل قبع على عرشه جامداً وبداه ممدودتان فوق مسندى العرش المذهبين .. وما كاد حجابه ينسحبون وهم يكادون يلامسون الأرض من فرط الانحناء حتى استوى مونتزوما قائماً ورد على انحناء كورتيز بما لا يزيد على إيماءة من رأسه ، ثم أشار اليه فى برود بالجلوس ، تاركا الضباط الآخرين وقوفاً على غير العهود ..

وبعد أن وقفت دونا مارينا خلف كورتيز ، أنشأ مونتزوما يتكلم بلهجاته الجامدة الفصحة ، تاركا للفتاة فرصة مناسبة للترجمة ونقل معانيه إلى كورتيز وضباطه باسبانيتها الركيكة ، وإذا هو يقول مركزاً نظراته فى كورتيز :

— تعلم يا مالينش — الاسم الذى أطلقه على كورتيز — إن الرجال يقاتلون لأغراض شتى ، مثل الرغبة فى تملك الأرض ، أو إحراز الغنائم ، أو طلب الشهرة ، أو الدفاع



عن ديارهم .. لكنهم يقاتلون أشد ما يكون القتال ، ويستعذبون الموت فى سبيل أشرف غاية فى الوجود ، ألا وهى محبة الآلهة والدفاع عنها ..

فلق كورتيز هذا الكلام مؤمناً عليه بايماءة من رأسه .. فى صدد الحية الدينية يتساوى الأسبان والأزتيك على السواء ..

واستطرد مونتزوما فى خطاب مستفيض فقال إنه وقومه قد تقبلوا بالتسليم هذا الغزو لأرضهم لا خنوعا وجبنا وعجزاً عن القتال وهم المحاربون الأشداء ذوو البأس ، ولكن استجابة لمشيئة الآلهة التى بهذا قضت .. وبهذه الروح أقسم الأمبراطور وزعماء العشائر يمين الطاعة والولاء لملك اسبانيا ، وقدموا له الجزية أكداساً من الذهب والمجوهرات لا عهد لانسان بمثلها من قبل .. بل إن مونتزوما لم يعترض حين ألقى الغزاة الفاتحين يبطلون تقديم القرابين البشرية للآلهة ويتخذون من بعض المعابد مقيلا فيها تمثال العذراء وابنها رمزاً للدين الجديد الذى جاءوا به من وراء البحار .. أجل ! .. فقد أقضى مونتزوما وقومه عن هذا كله واحتملوه .. إنما الذى لم يستطيعوا أن يغضوا عنه ويحتملوه ، والذى زاد الطين بلة والخطب تفاقماً ، فهو الاجتراء على تحطيم كبير الآلهة ووطئه بالأقدام فى غير ما مراعاة لمشاعر الشعب الذى أثاره هذا العدوان الشنيع .. واذا الآلهة غضبى مهتاجة ساخطة .. وإذا هى ترسل النذر إلى مونتزوما بأن تنصرف عنه وقومه وتنزل عليهم الصواعق الماحقة والأوبئة الفاتكة والحروب المهلكة إن لم يبادروا فيضعوا أيديهم على المعتدين الآثمين القادمين من وراء البحار ، ويسفكوا دماءهم فوق المذابح كل تكفيراً عن عدوانهم وبغيهم ؟ ..

وفى الحق إن ضباط كورتيز ما كادوا يسمعون هذا الوعيد حتى وقفوا متأهبين . بيد أن كورتيز لم يتأثر ولم يعد أن استرخى فى مقعده إلى الخلف . وان لاحظ بدرو أن الفتى أورتجويلا قد انسحب خلسة من القاعة بعد أن شبك كورتيز إبهامه فى حزامه

وفى النهاية قال كورتيز باسما :

— أنت مخطىء ياسيد مونتزوما .. ولو كنت مكانك لما اكترثت بالآلهة ولتركتها تغضب وتنصرف عنكم فلا يصيبكم أدنى ضرر .. نصيحتى اليكم أن تكفوا عن عبادة الأصنام وتحطموها جميعا تحطيما ..

فلم يكد مونتزوما يسمع هذا الكلام حتى هم بالنهوض من مجلسه مجأة مكشراً عن أسنانه ، تقدح عيناه شرراً ، يبد أنه ما لبث أن تمالك ، وراح يتفرس فى وجه كورتيز مليا .

وأما كورتيز فقد استطرد يقول :

— لكن لماذا تتذرنا ما دمت قد قررت تقديمنا قرابين للآلهة ؟ . . إن المفاجأة أفضل وأوقع . . اسمع ! . .

فقد انبعث من ساحة القصر صوت بوق يلعلع فى الفضاء ، واقترن على الأثر صليل أسلحة انبعث من تكتلات الاسبان . .

وكرر كورتيز سؤاله . . . فأجاب مونتزوما أخيراً :

— لأنى لا أريد قتلكم يا مالينش . . لأننا كنا أصدقاء . . . إنى أريد إنقاذكم . . . اتركوا هذه البلاد حالا ! . عودوا إلى بلادكم فيما وراء البحار ، وأنا أمنع قومى عنكم .

وشدما كانت دهشة ضباط كورتيز حين سمعوه يومىء برأسه قائلا :

— كما تشاء يا مولاى . . إن مهمتنا هنا قد تمت . . فقد زرنا جلالتكم طبقاً لأمر مليكنا واستحوذنا على ولائكم . . وسنعود اليه مزودين بما نلنا . . لكننا كما تعلم لا نملك فى الوقت الحالى سفنا نعود بها ، ولا بد من بناء سفن أخرى ، وهذا شىء سوف يستغرق منا فترة من الوقت . . حتى يتم بناء السفن ، عليك أن تكف قومك عنا ، من أجل سلامتهم ، لا من أجل سلامتنا . . وإنى أكره أن أناظرهم بالأذى ، لكن إنا هموا بالاعتداء علينا ، فانى سأبيدهم على بكرة أبيهم . .

كان كورتيز ممثلا بارعا . . . وقد تكلم بلهجة التوكيد الجازم والاقناع المفحم حتى ترك مونتزوما لا يجد قولا ولا يبدى اعتراضا . . على أن الامبراطور أبدى فى النهاية موافقته قائلا :

— سوف أرسل لك صناعا يساعدون فى بناء السفن . . وسأبذل جهدى لتهدئة الشعب وتسكين ثائرته . .

فنهض كورتيز وتقدم إلى الأمام خطوة وقال بلهجة الوعيد :

— هذا شأنك . . ويؤسفنى يا مولاى أن أغادر بلادك هذه . . لكن يعزينى أننا حين نغادرها ستكون أنت معنا . .



فهبت مونتزوما حين ترجم اليه هذا المعنى ، وقال مشدوها : أنا ؟

— نعم . . سنأخذك معنا لكى تقابل مليكنا الذى يريد أن يرحب بك .

ولقد نزل هذا الكلام على مونتزوما نزول الصاعقة حتى لم يجد جوابا ، بينما استطرد كورتيز قائلا :

— وإذن فلنسرع جميعاً فى بناء السفن حتى نرحل معاً يا سيد مونتزوما . . وحتى يتم ذلك ، تذكر أن أصنامك التى لم تفقد قدسها من القمار ، لن تتقدك إذا لجأت إلى الخداع . . إلى اللقاء يا صاحب السمو ! .

وانحنى كورتيز تحية ، ثم انصرف على الأثر مع ضباطه .

## الفصل الثالث

انفض مجلس الضباط هذه الليلة فى ساعة متأخرة وعاد بدرو إلى غرفته . .

ولم يتخذ فى هذا الاجتماع قرار معين ، إذ كان كل شىء يتوقف على الحظ . . فان وصول الامداد من اسبانيا قد يغير الموقف ، وقد انقضت منذ إبحار مونتيجو و ( بورتكاريرو ) بسفينة الكنز إلى اسبانيا مدة تكفى لارسال الرجال والمتاد . . . أو قد يمكن إثارة القبائل الهندية من العناصر الأخرى ضد الازتيك وإفادة الاسبان من مثل هذه الحركة . . . أو قد يجد غير هذا وذاك ما لا يكون فى الحسبان . . . وفى خلال ذلك لا بأس من البدء فى بناء ثلاث سفن فى فيلاريكا ذراً للرماد فى العيون ونهدئة الخواطر . . .

وهكذا كانت سياسة الصانعة وكسب الوقت هى السياسة المثلى فى هذه الظروف ، حيث يواجه أربعمائة من الاسبان ما لا يقل عن أربعمائة ألف من الأزتيك وأتباعهم .

وعاد بدرو إلى غرفته غير كائنا بما تطورت اليه الأمور ، فاذا هى تبادره قائلة :

— دعنا من حديث الحرب هذه الليلة . . لتحدث عن شئوننا الخاصة فحسب هذه المرة . . إننى سعيدة غاية السعادة وسأقول لك السبب . . لكن خبرنى أولا . . أما زلت تحب السيدة البيلة فيرا ؟

كان السؤال مفاجأة لبدرو . . وقد أخذ يرنو إلى التأمل حينا وهو حيران تائه فى بيداء نفلية المرأة وأطوارها العجيبة وتقلباتها الفاجئة . . على أنه قال فى النهاية :

— إني أحبك أنت أكثر من حياتي .. أنت امرأتي الخاصة ولا يمكن لامرأة أخرى أن تحتل مكانك . . أما عن السيدة لويزا فاني أحبها كما يحب الفارس سيدة أحلامه ، وقد أقسمت أن أفنى في خدمتها .. لكني لا أستطيع أن أفسر أكثر من هذا ، ولا يمكنك أنت أن تفهمي ..

لكن حسب كاتانا ما سمعت .. فقد صرح لها بأنها امرأته الى الأبد . . وأن لويزا ان تنال منه سوى النفر والواثيق .. ولذلك قالت له :

— إني سأنجب لك طفلك الأول .. وهذا سر سعادتي .. أفهمت الآن ؟

فلم يكد بدرو يلم بالنبأ حتى طوقها بساعديه وضمها الى صدره وراح يقطرها بقبلاته وهو في نشوة من الغبطة لا حد لها .. وأنثأت كاتانا تحدثه عن المولود وكيف أنها تطمع أن يكون ذكرا وأنه سيكون أخضر العينين نحاسي الشعر مثل أبيه ، وكيف أنها ستتوفر على تربيته وتنشئته تنشئة صالحة حتى يغدو جديرا بوالده العظيم .. وكان بدرو في خلال ذلك يستمع اليها ويبادلها هذه الشاعر وهو سعيد مثل سعادتها ، حتى استولى عليهما النعاس ، فناما وهما يحلمان أهنأ الأحلام .

## الفصل الرابع

في صباح يوم من أيام شهر مايو استيقظ بدرو على أصوات صياح وطلقات مدافع وقرع أبواق وهرج متزايد ساد أرجاء المعسكر .. فلما استطاع النبأ علم أن نحو عشرة سفينة رست في ( سان أولوا ) بكامل حمولتها من الرجال والسلاح والعتاد ..

كان هذا النبأ بمثابة نجدة من السماء بعد انقضاء أسبوعين من القلق والخوف والشعور بالخطر المتزايد من ناحية مونتزوما .. وكان معناه أن الحملة الجديدة تتألف من مئات الرجال ، وأن ( أسبانيا الجديدة ) هذه قد أصبحت شيئا مضمونا وزال كل خطر من قبل مونتزوما وشعبه ..

وأسرع بدرو من فوره الى مقر القائد العام ، فاذا مجلس الضباط منعقد برئاسة كورتيز . وإذا بدرو يرى بدل الفرح والاستبشار مظاهر الوجوم والقلق ، وسمع كورتيز يخاطب ضباطه قائلا إنه تلقى نبأ وصول السفن من الامبراطور مونتزوما الذي أبلغه في سخرية لها مغزاها أن هذه السفن ستغنيهم عن بناء السفن التي تقل عليه



وأنها ستعود بهم إلى أرض الوطن في سلام .. وفي الحق أن الأسطول القادم هو أضخم أسطول عبر البحار الغربية حتى الآن ، وأنه مؤلف من نحو ألف رجل ، ومائة من الجياد ، وعشرين مدفعا ، ومقادير موفورة من العتاد والمؤونة .. إنما الذي أقلق القائد العام أن بعض وحدات الأسطول قد رست في سان أولوا ولم ترس في فيلاريكا قاعدة الأسبان ، وهذا ما يحمل كورتيز على الاعتقاد بأن الأسطول قادم من كوبا ، لا من أسبانيا كما كان الاعتقاد العام ، وأن مونتزوما الذي يعرف عن أسرار هذا الموضوع أكثر مما يريد أن يفضي به ..

ثم استطرد القائد العام قائلا بعد أن أفاض في سرد الأدلة التي تعزز رأيه :

— كلا أيها السادة .. ينبغي ألا نخدع أنفسنا .. إن هذا الأسطول القادم هو نذير شؤم لحملتنا .. وأغلب الظن أن مونتيجو وبورتكاريرو قد عرجا بسفينة الكنز على كوبا رغم أوامري حيث قبض عليهما وصودر ما معهما من الذهب للرسل إلى مليكنا في أسبانيا .. وعلى أي حال فان أنباء الكشف العظيم الذي وفقنا اليه هنا قد تسربت إلى الأصفاع ، وها نحن أولاء نرى رجال فيلاسكيز يطنون حولنا طنين النحل يحدوهم الجشع لانتزاع ما ظفرنا به .. أفلم يكفنا أن نواجه نصف مليون من الأزتيك ، حتى نحسب حساب نصف عددنا من إخواننا البيض أيضا ؟ وهكذا ترون أيها الاخوان أننا نواجه الآن ضياع آمالنا وغمار مساعينا ..

وتوقف القائد العام هنيهة ، وسرح بصره في الضباط واحدا واحدا وهو يقول :

— فهل ترونا نواجه هذا كله متحدين متضامنين ؟

فأجابه الضباط جميعا بالايجاب وقد أشعلت هيئته ولهجته روح الحماسة في صدورهم فقال كورتيز بحزم وارتياح :

— بديع ... والآن ، ليذهب رسول على جناح السرعة إلى الكابتن بلاسكو دي ليون ورجاله الثلاثة والخمسين لابلاغه هذه الأنباء لكي يتراجعوا في زحفهم وينتظروا في شولولا حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة ... وأنت يا كابتن تايا ، استعد للذهاب في خلال ساعة إلى فيلاريكا لحمل رسالة مني إلى ساندوفال ... والآن أيها السادة ، ليعد

كل منكم إلى التكات لتشديد عزائم الجنود والقضاء على روح المزعة بين المترددين المتخلفين ... وسنتظر ما يكون ...

وهكذا راح الجيش ينتظر وهو يراقب الأريتك من ناحية يمين الخفر ، ويرتقب الأنباء الواردة من منطقة الساحل من الناحية الأخرى ، حتى عرفت الحقيقة على مر الأيام ...

وكانت الحقيقة مؤيدة لما قدره كورتيز ... فقد كان الأسطول القادم موفداً من قبل فيلا سكيز حاكم كوبا لاستعادة حقوقه فى الأراضى الجديدة للكشفة باعتبار مراعي الحملة ومانع امره لها حين إبحارها ... ولم تخب ظنون كورتيز أيضا فى صدد سفينة الكنز التى وجهها إلى أسبانيا ... ومع أن مونتيجو قد أفلت من الاعتقال ، فانه رسا بالسفينة كوبا لزيارة مزارعه فى الريف زيارة خاطفة ، ومن هناك انتشرت أنباء الحملة انتشار النار فى الهشيم ، وعلم الجميع باكتشاف الذهب فى الغرب بكثرة لم يسمع بمثلها من قبل فهل تترك هذه الثروة الطائلة نهباً للحريق من الحونة شقوا عصا الطاعة وخرجوا على سلطان الحاكم الخطير ؟.. وكذلك أعد الأسطول وألحق به نحو ألف من الرجال المتعطشين للذهب لكى ينازعوا الحونة ما حسبوه لقمة سائغة ، وأسندت قيادتهم إلى بانفيلو دى نارفاز الذى جاء بهم لاسترداد أسبانيا الجديدة وإعادتها إلى سلطة حاكم كوبا إن سلماً وإن حرباً ، ولكن لا بد من إعادتها بأى ثمن ! ...

لكن نارفاز لم يحسب حساباً لدهاء كورتيز ... وقد تجلى هذا الدهاء فى المناسبة التى حدثت غير بعيد ...

فقد جيء إلى مدينة فيراكروز بثلاثة من رجال نارفاز أسرى مقيدين يلقون شر معاملة ، وكان قد أوفدهم إلى ساندوفال فى قلعة فيلا ريكا يعرضون عليه التسليم ، فكان جوابه أن بعث بهم إلى كورتيز على هذه الصورة المهينة عقابا لهم على احترامهم .. أفتدرى ماذا فعل كورتيز ؟..

لقد أطلق سراح الأسرى الثلاثة على الفور ، وأبلغهم اعتذاره عما لحق بهم من مهانة ، وأعدهم فى ثكنات الجيش استقبالا رائعاً وأطلعهم على جانب من كنوز الحملة



ثم ردهم إلى نارفاز محملين بالهدايا والغنائم لكى يشيدوا بسخاء كورتيز بين اخوانهم ويحرضوا على الأنظار هداياهم ...

وسرعان ما كان لانفجار هذه القنبلة دويها فى أرجاء معسكر نارفاز ... فعلام القتال وهناك من الذهب والأراضى ما يشبع الجميع ، وهذا كورتيز الكريم السماح فى انتظار اقتسام الغنائم معهم ؟ ..

وفى الحق أن كورتيز لم يتردد فى توجيه رسائل بهذا المعنى إلى قائد حملة كوبا ، وهو يهدف إلى إبلاغها لضباطه أكثر مما يهدف إلى إبلاغها إليه وحده ... أجل !.. لماذا لا نلتقى أصدقاء لماذا لا نتفاوض ونتفق ؟.. علام الوقوع فى مونتزوما وتضييع جهود الحملة بالحرب الأهلية بين الأسبان ؟ ..

ذلك هو الهجوم الدبلوماسى البارع الذى تمخضت عنه عبقرية كورتيز وأوحى به دهاؤه ... وكان لسانه فى هذا المقام هو الأب برناردينو أوليدو الذى حمل رسائل كورتيز مع مقادير جزيلة من الذهب لاغراء كبار أعوان نارفاز

ومن عجب أن الأب أوليدو لم يشخص لاتمام مهمته حتى اجتمع بيدرو دى فارجاس وحدثه عن المهمة التى نيطت به لدى إخوانهم الأسبان وأبناء كوبا ، وتطرق به الحديث إلى تذكيره بالوعد الذى قطعه بدرو على نفسه بين يدى الأب القسيس عن دييجو دى سيلفا والصلاة من أجله .. وإذا كان بدرو قد عجب فى نفسه مما حمل الأب الفاضل على إثارة هذا الموضوع عشية رحيله إلى معسكر جيش كوبا ، فانه لم يسعه نزولا على رغبة الأب إلا تجديد عهده السالف ..

●●●

على أنه مهما يكن من دهاء كورتيز ، فقد كان مونتزوما يتوسل بدهائه الخاص .. إذ ثبت لكورتيز أن مونتزوما على اتصال بالقائد نارفاز ، وإن ذهب الأمبراطور قد تسرب إلى صناديق هذا القائد .. بل ثبت كذلك أن الأمبراطور يؤلب القبائل القاطنة فى المناطق الساحلية ضد كورتيز وقد تعهد أن يسلم كورتيز حيا أو ميتا للقائد نارفاز بعد أن وعده هذا بتخليصه من أيدى أسريه ..

ثم كانت الرسائل التى تلقاها كورتيز من الأب برناردينو أوليدو غير مبشرة بخير .

فان كثيرين من ضباط نارفايز لم يستجيبوا لاغراء الرشوة ، وآثروا أخذ الغنيمة كلها على الاقتسام والمفاوضة .. ولم يلبث نارفايز أن رفض نهائيا كل مسلة وزحف بجيشه على مدينة تمبوالا .. وبعث الكابتن ساندوفال برسل من فيلاريكا يخبر بتمرد القبائل المتدينة على الساحل ويتحدث عن الاجراءات الدفاعية التي اضطر لاتخاذها . . وهكذا لم يجد كورتيز بدا من العمل الحازم بعد أن أخفقت أساليب الدهاء والحيلة . . فجمع ضباطه وخاطبهم قائلا :

— لم يبق أيها السادة بد من العمل إذا أردنا ألا نقع بين نارين . . بين جيش نارفايز وبين الأزتيك .. فلنزحف إذن نصف القوة غدا لملاقاة نارفايز ، وليبق النصف الآخر وقوامه تسعون رجلا مع خمسمائة من قبائل تلاسكالا الموالية لنا، للدفاع عن المدينة

ورب قائل يقول : لماذا لانزحف جميعا لملاقاة عدونا القادم من وراء البحار ؟ ..

والجواب سهل يسير .. فاننا إذا تركنا هذه المدينة ضاعت من أيدينا إلى الأبد ، وذهبت جهود جمتنا هباء منثورا ..

وتوقف كورتيز هنيهة ، ثم استطرد يقول :

— وأغلب الظن أن الأزتيك سيعتزمون الصيحق يروا نتيجة الالتحام في تمبوالا فاذا هزمنا هناك فان الباقين هنا هالكون لامحالة .. وإذا انتصرنا كفوا أيديهم وكان النجاح حليفنا في كل مكان .. أتوافقون أيها السادة ؟ ..

ولما جاءه الجواب بالاجماع أردف قائلا :

— إذن فقد عينت الكابتن ألفارادو قائدا عليكم مكاني مدة غيابي ، يساعده الكابتن دي فارجاس كنائب له ..

ولما حاول بدرو الاعتراض إذ كان يتوق إلى الاشتباك في المعارك الوشيكة ، قاطعه كورتيز قائلا :

— أنت هنا في مكان الخطر ياسيد بدرو . . وسيبقى جوان جارسيا إلى جانبك وسيقع على عاتقكم أنتم الثلاثة عبء المحافظة على زهرة الدائن هذه .. وليكن رائدكم في ذلك التوسل بالذكاء والدهاء ، وهما أفعل من القوة في هذه الظروف ! ..

وهكذا كان .. وفي صباح الغد شهدت ساحة القصر وداعا مؤثرا بين الجنود .. ثم



زحف كورتيز ورجاله في مهمتهم الخطيرة، تاركين الباقين مستبدين بمصير أحفل بالخطر

## الفصل الخامس

كانت أولى المشكلات التي واجهت ألفارادو وبدرو في اضطلاعهما بالقيادة في غيبة كورتيز هي ملابسات ذلك الحفل الديني الكبير الذي طلب الأزتيك تصريح باقامته

فهذا الحفل هو طقوس دينية راقصة تقام كل عام تكريما لآلهة الأزتيك ويستمر احياؤها عشرين يوما كاملة .. وكان معنى التصريح باقامة هذا الحفل الكبير هو تمهيد السبيل لاجتماع كافة زعماء المكسيك في صعيد واحد ، ولعل ذلك يغريهم بتوجيه الضربة للتوقعة ضد قاهريهم الاسبان .. على أن منع اقامة الحفل كان معناه زيادة إيغار الصدور وحفزهم على التعجيل بالثورة ... ولذلك تم الاتفاق على حل وسط هو السماح باقامة الحفل الديني الكبير بشرط منع تقديم القرابين البشرية ..

ووقف بدرو وجارسيا لدى بوابة القصر الملطة على الميدان الكبير يشهدان الجموع المتراصة الحاشدة في ثيابها الملونة الزاهية وحليها اللامعة وهي تتحرك في بطء بطيء للمعبد الهرمي الأكبر ، حتى قدر جارسيا عددهم بعشرة آلاف أو يزيدون ، ولم يفته أن يلاحظ بينهم كثيرين من المحاربين ، وإن كانوا بغير سلاح ..

ثم لاح لبدرو وجارسيا موكب غريب حقا .. فقد شاهدا فتيين وسيمين من الهنود على رأس كل منهما إكليل من الأزهار وهما يتفخان في مزمارين ويسيران بحركات راقصة ومن خلفهما حاشية كبيرة من الفتيات والفتيان ينثرون عليهما الورود .. وكانت الجموع الحاشدة تفسح لهما الطريق وتنحني بين أيديهما ومن الناس من كان يسجد خشوعا . . .

وقد سأل بدرو أحد زعماء قبائل تلاسكالا الذي اعتنق المسيحية عمن يكون هذان الفتيان .. وما شأنهما .. فقيل له إن الآلهة قد تقمصتهما ، وإن الكهنة قد اختاروهما منذ عام وجعلوا يدللونهما ويوفرون لهما كل ما تشتهي النفس من الفوائد الجسدية ، وهما الآن في طريقهما إلى المعبد الكبير حيث تشق منهما البطون وتنزع القلوب ربما للآلهة ، ثم تقدم لحومهما طعاما للشعب سائغا مريئا ..

فلم يكد بدرو يسمع هذا الكلام حتى استشاط غضبا لأن ابطال القرابين البشرية كان شرطا للترخيص باقامة الحفل الديني الكبير . . وسرعان ما أرسل الى استدعاء الكاهن ( الفارادو ) القائد العام بالنيابة وقص عليه ما وقف عليه . وإن هي إلا دقائق حتى خرج من بوابة القصر ( الفارادو ) وبدرو على رأس خمسين من الجنود بكامل سلاحهم وراحوا يشقون صفوف الازتيك بالقوة حتى بلغوا مكان الفتيين اللذين تقدمتهما الآلهة فى ساحة العبد ، فأحاط بهما الجنود الحاملة السوار بالعصم وساقوهما إلى القصر سوقا . وقد شيعتهم الجماهير بصيحات الاستنكار والغضب والوعيد ، ولكنهم كانوا عزلا من السلاح فلم يستطيعوا أن يحولوا دون ما فعل الاسبان ، وأسرع زعماء عشائر الازتيك بعقد الاجتماعات الخاصة للتشاور فيما ينبغي عمله ازاء هذا العدوان الاسباني الصارخ على مقدساتهم الدينية القديمة . .

وأما الفارادو ونائبه بدرو فقد عكفا على استجواب الفتيين الأسيرين للوقوف فى على نوايا الأزتيك الحقيقية وعلى ما يبيتونه فى هذه الاجتماعات الحاشدة التى لم يسبق لها مثيل . . فأبى الفتيان أن يقولا شيئا أول الأمر . . . فلما أمر الفارادو باحضار آلات التعذيب خافا وأعلنا منهما عقدة اللسان ، وقالت دونا مارينا مترجمة الحملة نقلا عنهما :

— يقولان إن الأزتيك سينقضون علينا بعد انتهاء الحفلات ، وإن زعماءهم على تمام الاهبة وسلاحهم فى متناول الأيدى ، وهم لا ينتظرون سوى كلمة الآلهة لبدء الذبيحة ، فقد خدعناهم فى أمر السفن التى قلنا إنها ستبنى وإننا لا ننوى أن نغادر هذه البلاد حقيقة وإذا التى ما ليش كورتيز الهزيمة على أيدى البيض القادمين عبر البحار فذلك مايشهون فأما إذا عاد سالما فسيلقى هنا قبس القصير ، فانهم قد عقدوا العزم على ألا يتركوا أحدا من البيض على قيد الحياة ، بل سيضحون بنا جميعا على مذبح الآلهة ، ثم يأكلون لحومنا ويمتصون رؤوسنا ! .

فقال الفارادو ساخطا :

— لعنة الله على هؤلاء الوحشيين ! .

وراح الفارادو يدبر مايتعين أن يعمل . فقال أخيرا وهو يبتسم ابتسامة مستطيرة :

— لنسبقهم ولنضرب ضربتنا قبلهم . .



ولما استشاره بدرو عما يقصده راح يقول :

— لا بأس . . إن زعماء الازتيك مجموعون هنا . . وسنذهب غدا لحضور حفلتهم متظاهرين فى الظاهر . . وسيكون الزعماء فى ساحة العبد غير مسلحين طبعا . . . ومتى أعطيت الاشارة الجنود حوصرت النساقد وأعملنا فيهم تقتيلا وتذبيحا حتى تقنيهم على بكرة أبيهم ، فلا يبقى بعد ذلك من يقود الشعب ضدنا . . ما رأيك ؟ .

لكن بدرو لم يقر هذه الخطة وعارضها صراحة قائلا إنها قائمة على الغدر منافية لتقاليد الحرب ، وشرف القتال ، وإنها بغض النظر عن هذا الاعتبار الأدبى ستثير ثائرة الشعب كافة وتحمله على القيام بهجوم عام على الجنود الاسبان قد تكون مغبته وخيمة العواقب .

فلم يثن هذا الاعتراض الفارادو عن عزمه ، واستمر النقاش بين الاثنين طويلا حتى تبودلت فيه بعض الألفاظ الحادة ، وقال الفارادو أخيرا :

— اسمع يا بدرو . . إنى أنا القائد المسئول هنا . . ولا أحب أن تؤخذ على غرة ، بل سأوجه الضربة الأولى . . ولو كان كورتيز هنا ما فعل غير هذا . . وعلى أى حال فاننا سنشهد الحفل غدا ثم أقرر بعد ذلك ما نفعل . . فاذا تبينت أنا نستطيع توجيه الضربة بنجاح فلن أتردد فى العمل . . وإذا كان العكس لم نفعل شيئا . . ولا محل هنا لاعتباراتك الأدبية ما دام مصير الحامية معلقا فى كفة القدر . .

فقال بدرو وقد أطبق فكيه :

— إنى ضد هذا الرأى . . ولك أن تعدنى بعيدا عن الذبيحة . .

— بل سوف تؤدى واجبك يا كابتن دى فارجاس ! » .

وانتهى الحديث بينهما عند هذا الحد . .

## الفصل السادس

قصد الجنود الاسبان فى اليوم التالى جماعات إلى ساحة العبد الكبير بناء على أوامر الفارادو واختلطوا بجماهير الأزتيك المحتشدة التى وإن لم تقابل مجيئهم بالترحاب فانها تركتهم وشأنهم يتفرجون على ما يدور .

ومهما يكن من شعور بدرو دى فارجاس فانه لم يستطع أن يرفض مرافقة زملائه

باعتباره نائب قائد الحامية ولأنه لم يتم الاتفاق على شيء معين بصفة قاطعة ، وكان يرجو أن تتطور الأمور على صورة تثني القارادو عن عزمه الرهيب ..

ووقف بدرو فوق مدرج العيد السفلي يرقب جموع الغاربين الأزتيك وهم يرقصون على دقات الطبول ونغمات الزمور رقصات عنيفة كانت تتزايد في العنف بين لحظة وأخرى حتى سكروا بخمرها واستحالوا إلى كتلة وحشية متأججة الشاعر ، وحتى بوترت أعصاب المتفرجين الاسبان بفعل هذا الضجيج الثمالي وغدت تستجيب لأدنى اشارة ...

وقد جاءت الاشارة حقا من القارادو على حين غفلة .. فقد رفع سيفه فجأة وأهوى به فشق أقرب الراقصين اليه وشاح برأس آخر وأغمد خنجره في ثالث ... ثم صاح صيحة عالية وهو يهوي طعنا بخنجره فكان ذلك هو النذير الذي ارتفعت على أثره عشرات السيوف والخناجر تعمل في زعماء الأزتيك تمزيقا وتقتيلا حتى انقلب دق الطبول إلى صراخ يصم الآذان مقترنا بخرشجة المحتضرين وأنات المزقين .. وتحاول الزعماء الناكودون الفرار من هول هذه المذبحة البالغة ، ولكن منافذ الساحة كانت مأخوذة عليهم ، وهم عزل من كل سلاح ، وكذلك ذهبوا ضحية أبشع مذبحة عرفها التاريخ ، ولم يفلت منهم للشر النباً بين قومهم إلا قليل ..

ووقف بدرو يعزل يرقب هذه المجزرة وهو محزون متقزز قانط .. ثم راعه أن شهد الهندي كوتل الذي عرفه في جاين يدافع عن نفسه دفاع المستميت بسيفه استحوذ عليه وقد أحاط به فريق من الأسبان يراوغونه ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه ..!

وياه .. ! هذا هو الرجل الذي عف عن قتل بدرو في جاين ، وأنقذه بدرو من الموت بدوره حين أتى عليه وساعده على الافلات من أسبانيا ..

لم يتمالك بدرو أن عمل بوحي اللحظة .. فاختطف السيف من يد كوتل بحركة بارعة .. ولما رأى كاسكا وسباستيان من رفاقه في الحملة يهجمان على كوتل بالخناجر يدعو أنه طريدتهما ، صدهما بدرو عنه قائلا :

— كلا أيها الرفاق .. هو لي .. إني أحببت بزية هذا الهندي ، وأحب أن أقتله



ذخيرته هدية لكاتانا .. ولكني مع ذلك سأعطيكما نصيبكما كاملا .. ما رأيكما في خمسين جنيها لكل منكما ؟ أسرعا قبل أن تفوتكما غنائم أخرى .. إني سأتكفل به وحدي ..

فقبل الرجلان ثقة منهما بكلمة بدرو وابتعدا على الفور .. وأما بدرو فقد أطبق بقبضته على عنق كوتل وشك طرف سيفه في بطنه ستراً للظاهر وهو يقول له :

— ما أبعد العهد بلقائنا في جاين ..! من كان يظن أننا سنلتقي هنا يا كوتل ؟

فأومأ الهندي إيجابا وهو يتفرس في عيني بدرو مترددا متشككا .. فقال هذا :

— إني لم أكن أعرف إذ ذاك أنك من الأزتيك ..

فهز كوتل رأسه قائلا :

— لست من الأزتيك .. إن موطني إلى الغرب .. إنما من أصدقائهم .. أنا من (الزابوتيك) ..

فنظر بدرو حواليه .. ولما رأى الأسبان متجمعين في وسط الساحة يجهزون على من بقي من زعماء الأزتيك ، أومأ برأسه إلى السور قائلا :

— اسمع يا كوتل .. اقذف سيفي بعيداً .. أفلت مني وأسرع إلى السور .. أسرع

— لقد أنقذت حياتي مرتين أيها الفارس ..

— أسرع أيها الأبله ..

فامتثل كوتل وضرب السيف بساعده ثم تخلص من قبضة بدرو ولطمه في صدره لطمة جعلته يترنح الى الخلف ، ثم أسرع الى السور فاعتلاه بحركة بارعة ، وإن هي إلا هنيهة حتى اختفى في الناحية القابلة ..

وقد أسرع بدرو خلفه صائحا ، بيد أنه ما لبث أن توقف واسترد سيفه بابتسامة فاترة ، وفي هذه اللحظة سمع صوت القارادو يقول عن كثب منه :

— لكن هذا درساً لك يا دي فارجاس ، فلا تقابل هؤلاء الناس إلا بالموت العاجل ..!

وكان القارادو رغم ابتهاجه يبدو قلقا غير مرتاح البال .. فقال له بدرو وهو ينظر إلى الأرض المضيئة بالسماء :

— أهنئك أيها الكابتن على هذه المعركة الباسلة ..!

فصاح القارادو مهتاجا بصوت من يعذبه ضميره :

— أتسخر منى أيها السيد ..؟ من قال إن هذه معركة ؟ إنها عمل سياسى حكيم .. أراك تخاطبنى بلهجة تستحق المؤاخذة ..!

فردد بدرو الكلمة قائلا :

— مؤاخذة .. تغير كلامك أيها السيد !

وهكذا احتدم الجدل بين القائد ونائبه احتداما حملهما على امتشاق الحسام وتصفية الموقف بالمبارزة ، لولا أن تراءى إلى مسمعهما فى هذه اللحظة صوت بعيد كانا عنه فى شغل بما هما فيه من خصام ، فما تزايد واشتد أزل القارادو سيفه قائلا :

— مهلا ..! اسمع ..! ما هذه الضجة بحق الشيطان ؟

كان الصوت أشبه بزلزال أو إعصار جائح .. ثم استحال إلى ضجب فوار جائش ..

ولما أدرك القارادو مغزاه ، هتف وهو يغمد سيفه :

— رباه ..! لا وقت أمامنا للمبارزة .. علينا واجب للجيش .. إن المدينة زاحفة نحونا ..!

وصاح برجاله المتهمكين فى جمع الأسلاب عقب المذبحة :

— الى الثكنات .. الى الثكنات .. الأزتيك هاجمون !

وإن هى إلا دقائق حتى انسحب الجنود الاسبان من ساحة المعبد واجتازوا الميدان عائدين الى أبواب القصر فى غير نظام وقد خضبت وجوههم وأيديهم وملابسهم بالدماء ..

وفى هذه الأثناء كانت تشق الطريقين المؤديين إلى الميدان كتل بشرية متراصة يتعالى منها هدير مخيف وعجيج مروع وقد امتزج هذا كله بدق الطبول ونفخ الزمور فكان له دوى يصم الآذان ويلقى الرهبة فى النفوس ... وما إن بلغ الأسبان أبواب القصر حتى انهالت عليهم قذائف الأزتيك كالمطر بين نبال وحجارة أصابت بعض الجنود وألقت بهم أرضا ، فأسرع إخوانهم يجرونهم جرا إلى ساحة القصر ، وأوصدوا الأبواب من خلفهم قبل أن يدركهم هذا الطوفان البشرى المدمر ...

## الفصل السابع

إنها لمعجزة حقا أن بقى سور القصر الخارجى قائما متماسكا تحت ضغط هذا الهجوم



الهائل العاصف الذى كانت تنهال فيه النبال وحجارة المنجنيق كالسيل فتصيب المدافعين فى ساحة القصر أو تطيش بينهم ...

أما هؤلاء المدافعون فسرعان ما ثابوا إلى النظام واتخذوا الأهبة لمواجهة هذا العدو الطاغى الجارف ، ففتحت مناقذ السور ، ونصبت المدافع ، وأخذت تقصف قصفها المدوى الذى كان يضاعف من الضجيج والعجيج وصيب للهاجمين زرافات ووحدانا ، لكن موجات المهاجمين كانت تزيد وتتعالى ، وأفواجهم تتسلق سور القصر فتقابلها الحراب والبنادق والسيوف والخناجر ... ولكن من الحق أن المدافعين قد تعددت كذلك إصاباتهم ، ومع أنها لم تكن بالخطيرة فانها ضاعفت من متاعبهم وشعورهم بوطأة الهجوم ...

وتعاقبت الساعات عصيبة رهيبة ... وامتلأت ساحة القصر بالنبال والقذائف المتساقطة ... وتكدست الجثث والاشلاء عن كثب من السور ورغم ذلك لم تخف حدة اللحمة ، ودب الاعياء إلى نفوس المدافعين ... وانحدرت الشمس إلى الغيب وما زالت المعركة حامية الوطيس محتدمة الأوار ...

●●●

وكان القارادو هو صاحب فكرة استدعاء مونتزوما الأسير فى القصر للاستعانة به فى هذه الكارثة ... فجىء بالامبراطور فى غير حفاوة وأوقف على مرتفع قرب السور بين القارادو وبدرو وراح يستحث شعبه على التزام الهدوء ... فما كاد يتخلص أمام أبصارهم حتى خيم الصمت عليهم وكفوا عن كل عدوان وأنشأ مونتزوما يصوتر نان بوصهم بالصبر وانتظار ساعة الخلاص قائلا إنها آتية لا ريب فيها وإن مونتزوما عنهم غير نائم ولا غافل وإن الآلهة عن رعايتهم غير منصرفة ولا متواكلة ...

وهكذا انتهى الهجوم مؤقتا على الأقل ... وانسحبت جموع الأزتيك ...

* * *

ثم تجدد الهجوم فى الفجر ، وتجدد الاستجداء بمونتزوما لوقفه ... وإذا كان الأزتيك قد استجابوا مرة أخرى لأمر امبراطورهم الأسير لدى الأسبان ، فانهم حاصروا كافة المنافذ الأرضية والمائية المؤدية إلى القصر وقطعوا عنه كل اتصال بالعالم الخارجى ، ورابطوا فى مواقعهم لا يبرحون ...

أما الأسبان المحصورون فى القصر فلم يبق لهم من أمل إلا فى حضور كورتيز ... ولذلك عهد إلى هنود تلاسكالا المتحالفين مع الأسبان فى النسل من خطوط الأزتيك وإبلاغ الجنرال كورتيز ما حل بالحلة فى عاصمة المكسيك والتماس معونته العاجلة إن هو استطاع إليها سبيلا ، وإلا قضى على الحامية بالفناء ...

وبعد هذا لم يبق أمام بدرو ورفاقه سوى الانتظار وارتقاب ما تأتى به المقادير ...

وذات يوم ، بينما كان بدرو وجارسيا يتجولان فى ساحة القصر ، إذ أقبل الفارادو ومعه الترجمة دون مارينا وخاطب بدرو قائلا :

— إن الامبراطور مونتزوما يدعوك وإياك يا سيد بدرو ... إن لديه شيئاً يريد تبليغنا إياه ... ترى ما ذا يريد هذا الثعلب العجوز ؟.. هلم بنا ...

واستقبلهما الامبراطور رقيقاً بشوشا كالعادة وراح يقول على لسان الترجمة :

— إنى تلقيت الآن أنباء سارة من مدينة ميوالا لا بد لى من إشراككم فى العلم بها ...

كيف تلقى مونتزوما هذه الانباء وهو أسير بين أيدى الأسبان ؟..

كان هذا هو السؤال الخير الذى خطر للقائدين فى وقت واحد ... لكن مونتزوما قد نجح رغم الحراس والأسوار فى الاطلاع على ما جريات الأمور الخارجية بأفضل مما كان يتاح لأسيريه ... بيد أن القائدين كانا فى شغل بجوهر الموضوع عن هذه المسألة الثانوية ، ولذلك أرهفا السمع حين قال مونتزوما :

— لقد دارت معركة كبرى بين ماليتش كورتيز وبين البيض القادمين من وراء البحار ...

فصاح الفارادو دون أن يتمالك نفسه ؟

— يا إله السموات ! ومن كسب المعركة ؟

— ماليتش كورتيز وجنوده ..

وسرد مونتزوما قصة مؤداها أن كورتيز داهم بجيشه ليلا مدينة ميوالا التى احتلها جيش نارفايز . فكان فى الظلام والفاجأة ما مكن له من احتلال المدينة ودحر جيش كوبا ومالبث رجال نارفايز أنفسهم أن تطوعوا مختارين بالانضواء تحت لواء كورتيز ،



وهكذا تمكن مائتان وخمسون من هزيمة ثمانمائة والاستيلاء على مدافعهم وجيادهم ، ونقل نارفايز نفسه إلى فيلا ريكا حيث هو الآن سجين

سرعان ماتبدلت الحال غير الحال أمام الفارادو وبدرو بعد هذا النبأ العظيم .. فقد انتهت لجأة متاعب الجنود المحاصرين فى القصر ، وتألق نجمهم من جديد . . ذلك أنه إذا كان كورتيز قد استطاع بحملة قوامها أربعمائة من الرجال الاستيلاء على المكسيك فهل يعجز عن استردادها وقواته الآن تناهز ألفاً ومائتين ؟ لاشك أن الرسل الذين أوفدتهم الحامية المحصورة قد اتصلوا الآن بكورتيز ، ولاشك أنه أنشأ من فوره يجتاز الجبال غربا لنجدة رجالهم والثأر لهم . .

وقال مونتزوما وهو يبتسم :

— ألم أقل لكم إنها أنباء عظيمة ؟ أولستم تحب ماليتش كورتيز وتمجده وتبتهج لانتصاره ؟ إننا سنرحب بعودته مع جنوده الأبطال .. بل إنه أخذ فعلا فى السير . . وإن القنوات المؤدية إلى المدينة هنا مفتوحة أمامه ...

فقال له الفارادو منذراً :

— وإنى أنصحك بلولاى أن ترفع هذا الحصار قبل عودته . . بل أنصحك أن تفتح الأسواق وأن تقدم التعويضات اللازمة من الذهب عما أحدثته بك من الاضرار بسبب هذا التمرد ، وأن تسوى كل شىء قبل أن يعود القائد العام . . فان فعلت فربما جنح إلى الرحمة .. وإن لم تفعل فهو يعرف كيف يفرض العقاب والقصاص

فقال مونتزوما وقد ابتسم مرة أخرى :

— سيجرى كل شىء على مايرام .. وإن القنوات مفتوحة أمامه كما قلت ، وسنرحب بعودته الترحيب اللائق بمقامه . .

وأسرع الفارادو وبدرو بالعودة لابلاغ رجال الحامية هذا النبأ العظيم ، فما إن بلغا الشرفة الخارجية حتى استوقفتهما دونا مارينا الترجمة قائلة :

— أنا خائفة مما سمعت . .

فقال الفارادو مشدوها :

— وعلام الخوف ؟ أوتخافين الآن ؟

فقالت فى الحاح :

— ابعث رسولا إلى القائد العام يحذره من العودة إلى هذه المدينة ودخولها . . ومن الخير لنا أن نخرج منها ونتضم اليه . .

فضحك الفارادو منهكما عليها ساخراً من مخاوفها . . فقالت له :

— إنما خوفى مما رأيته فى عينى مونتزوما . . ليس مارأيت هو الخوف . . إنه ميتوج حقا بعودة كورتيز وجيشه كافة . . إنه يدبر استقبالا مخيفا . .

وفى هذه اللحظة كانت ساحة القصر تموج بالرجال الملتفين حول رسول جاء مغيراً لاهثاً . . ولم يلبث أن تخلص منهم وجاء إلى الفارادو ونائبه قائلا :

— جئت برسالة وتحية من القائد العام ! إنى أريد مقابلة الامبراطور مونتزوما أيضا ! انتظروا حتى تسمعوا تفاصيل الأنباء التى جئت بها ! إننا والله قد انتصرنا انتصارا باهراً على جيش نارفايز !

وتابع الرسول حديثه بينما كان الفارادو يفض الرسالة . . وقال بعد أن ألم بمضمونها :

— الحمد لله ! . . لكن كيف مررت من خطوط الحصار ؟ لعلك لاحظت أننا قد استهدفنا للهجوم منذ ذهاب الجيش . .

فأجاب الرسول :

— جئت عن طريق القناة الجنوبية . . إنها مفتوحة على سعتها

فقالت دونا مارينا بلهجة التشاؤم :

— إنه الشرك المفتوح بابه أيها السادة !

فقال الفارادو باسماً :

— يالله من شرك ضعيف أمام ألف ومئتين من الأسبان ، وجموع من حلفائنا الهنود تلاسكالا ، فضلا عن الدفعية والخيل !

## الفصل الثامن

دخل جيش كورتيز مدينة للكسيك بعد نحو ثلاثة أسابيع وقد رفع عنها الحصار الذى ضربه الأزتيك حولها فى اليوم السابق لوصوله ، فكأنما أراد مونتزوما أن يحول بينها دون خروج الحامية المحاصرة ومغادرتها المدينة . .



ووقف أفراد الحامية على أسوار ساحة القصر يستقبلون الجيش القادم بصياح وترحيب منبعثين من أعماق القلوب وبقصف المدافع الذى يكاد يصم الآذان . . ولا غرو ! فقد انتهت الأيام العصيبة وانتهى السهر المضنى والترقب الثقيل على الأعصاب ! . . وبعودة كورتيز لتسلم دفة القيادة ، وقد بلغ الجيش ثلاثة أمثال عدده وعدته ، أضحت الحلة وقد تكللت غاياتها بأوفى النجاح وبلغت من أهدافها كل ما تريد . .

ووقف بدرو فى مكانه من السور يرقب تقدم الجيش حتى يعطى الاشارة بفتح البوابة الخارجية فى الوقت المناسب وقد اصطفت الحامية فى ساحة القصر لتحية الجيش القادم التحية الرسمية . . وكلما دنت الصفوف من مكانه تعرف إلى كثير من الوجوه المألوفة لديه العزيزة عنده وحيا أصحابها بأسمائهم وهم يبادلونه عن كثب حفاوة بحفاوة فهاهم أولاء أوليد وتايا وساندوفال وكثيرون غيرهم من أساطين الحلة الأولين ! . . بل ها هو ذا كورتيز نفسه يبتسم ويلوح رداً للتحية ! . . لكن سرعان ما جمد بدرو فى مكانه حين وقع نظره على ذلك الفارس الممتطى صهوة جواد أصيل وقد أطلع وجهه الشاحب . . وذلك القس الملتحى الراكب إلى جانبه وكلاهما يتطلع اليه فى مرصده ! . .

اكفهرت الدنيا فى نظر بدرو وتراءت لعينيه شهب نارية . . وقد سرت فى كيانه قشعريرة باردة ثم تكهرب جسده وتولته رعدة فى يديه ! . .

إن ما رآه لا يمكن أن يكون حقيقة واقعة . . ولا شك انه خداع البصر . .

ثم أعطى بدرو اشارة فتح البوابة وقد أيقن أن ما رآه هو حقيقة لاريب فيها . .

فها هما دييجو دى سيلفا والأب اينياسيو دى لورا رئيس محكمة التفتيش الرهيبة فى جاين يتطلعان اليه ويكادان يلتهمانه بنظراتهما ! . .

## الفصل التاسع

كان الأب برتلوميو أوليدو فى انتظار بدرو عند هبوطه من السور ، وقد أدرك من مظاهر انشغال البال البادية على وجهه أنه عرف عدوه اللدودين فى عداد الجيش القادم . . والواقع أن بدرو بادره بعد تبادل التحية والسلام قائلا :

— يخيل إلى أيها الأب الفاضل أنك كنت تعرف بوجود دى سيلفا ورئيس محكمة التفتيش بين رجال نارفايز قبيل ذهابك من هنا منذ ستة أسابيع ! . .

— نعم يابنى .. ان اسميهما كانا فى عداد الأسماء التى وقفنا عليها من أعوان تارقاير الدين وقصوا أول الأمر فى أسرنا .

— ولعل هذا هو سبب إبقائى هنا مع جارسيا ؟ ..

— نعم .. لقد تم هذا لصالحكما يا ولدى . .

— شكراً لك .. ولنفس هذا السبب جعلتنى أجدد العهد بالصلاة من أجل دى سيلفا ؟

— نعم . . .

واستطرد الأب أوليدو يقول وقد رأى نظرات الاستهجان مرتسمة فى عينى الشاب:

— ليس فيما فعلت يابنى تضليل ولا خداع . . فأنا من رجال الدين ، وقد فعلته حكرهاً لسفك الدماء ، ولأنى أحبك .. فهل فهمت الآن ؟ .. انك نذرت نذراً وأقسمت فيما يتوقف عليهما عفو الله عنك وغفرانه لك .. فهل كان يسعنى أن أدعك تنسى ما عاهدت الله عليه ؟ . . وهل كنت تريد أن أدعك تستهدف للغواية بتركك تذهب إلى سيمولا ؟ .. أما عن جارسيا فقد أردت إنقاذه . . فأنت وأنا نعلم ما هو عقاب قاتل قسيس من رجال الدين ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة !..

فانفجر بدرو قائلا :

— لكن ما الذى كتبته من هذا ؟ . . ان الرجلين هنا الآن بيننا . . فهل هذا أفضل مما لو التقينا بهما فى سيمولا ؟ ..

فهز الأب أوليدو منكبيه قائلا :

— لا أدرى . . إنما أردت كسب الوقت ، تاركا للأمور أن تتكشف فيما بعد . .

وما يحدث بعد الآن يتوقف عليك ..

فقال بدرو والريد يعلو شدقيه :

— إن كنت تظن انى وجارسيا سنتآخى ونتصافى مع قتلة أعزائنا ، مع قتلة أخى وأمه ، فأنت مخطىء ! .. إن هذا أكثر مما يحتمله بشر من لحم ودم !..

فراح الأب أوليدو يقول وهو ينقر بسبابته على صدر بدرو :

— لكنك سوف تحتمل هذا يا كابتن دى فارجاس !.. لقد جاء وقت كان بوسعى فيه أن أسلمك إلى ديوان التفتيش . . ولكنى بدلا من ذلك أخذت منك موثقا وفرضت



عليك توبة تقيلها وكانت فى الواقع أثقل مما كنت تتصور ... فالآن قد حق عليك أن تبر بعهدك وتحقق توبتك .. وإذا كنت تحب جارسيا فان عليك أن تتوسل بكل ما فى طاقتك لاثنائه عن عزمه ... ثم اسمع لقولى هذا ... مهما يكن من رأيك فى دى سيلفا والأب ايناسيو فان لهما مقاما عظيما بين رجال الحملة القادمة من كوبا ... وإن سلامة الحملة كلها تتوقف على دوام الصفاء بيننا وبينهم ... ثم إن هرنان كورتيز لن يسمح بحدوث أى صدع أو انقسام بين رجال الحملتين ... هذه يابنى نصيحتى الخالصة لك ...

فقال بدرو وقد رفع رأسه :

— أتظن إنى خائف ...

فقاطعه الأب أوليدو قائلا :

— حديث خرافة !.. إنما حسبتك تحب صديقك جارسيا ... أما فيما يختص بك ، فانك مقيد بيمينك أمامى !..

فغمغم بدرو :

— وما هو موقف دى سيلفا والأب ايناسيو ؟.. هل وعظتهما مثلى ؟.. أيراد أن أن نذعن وحدنا لمقتضيات الدين وتركهما يختاران اللحظة الملائمة لطعننا من الخلف ؟..

فهز الأب أوليدو رأسه قائلا :

— كلا ... فقد بينت لهما أنك وجارسيا موضع الحفاوة عند الجنرال كورتيز وبين أفراد الحملة ، وأنهما لن يكونا هنا فى مركز الأمر الناهى ... فقالا إنهما سوف ينسيان الماضى ، أو هذا ما زعماه ...

فقال بدرو بعد صمت وتدبر :

— يالسمو روحيهما !.. لا بأس يا أبتاه ! .. أدعو الله على أن يعينى على البر بقسمى ، وأنه لا شىء ثقيل ... ثم إنى سأبذل غاية جهدى عند جارسيا ، وإن كانت مهمة عسيرة ...

ثم أردف بدرو وهو يهتز احتداما :

— لكن دع أحدهما يتحرك خطوة ضدنا ، وعندئذ أكون فى حل من قسمى... وكم أتمنى على الله أن يحدث هذا منهما !..

وقد حسب الاب أوليدو أنه نجح فى تسعاء ، لكن الحوادث كانت أسبق منه وأغلب له ...

فقد ارتفع من ساحة القصر صراخ عظيم وهرج متزايد ، وشوهد الاب ايناسيو دى لورا يعدو ويداه حول عنقه وقد تمزق رداؤه الكهنوتى وخضب الدم وجهه ، ومن خلفه جوان جارسيا يلاحقه وهو هائج هياج الحيوان الكاسر يريد الفتك بفريسته ، والجنود هنا وهناك يتصايحون ويتراكضون فى محاولة بينهما وإنقاذ القس من موت فظيع محقق ...

هنالك أسرع بدرو فعلق بصديقه التاج ورده بمساعدة الكابتن ساندوفال عن الفتك بغريمه بينما هرع بعض الجنود فأدخلوا الاب ايناسيو أحد الابنية القريبة ...

فقال جارسيا وهو فى سورته :

— لماذا منعتمونى بالله أيها الاصدقاء ! .. لولاكم لخضبت يدى هذا المخلوق القذر أرجاء الساحة ! .. لكن صبراً ! .. لن ينجو طويلا ! ..

واعتاز كثيرون إلى صف جارسيا يبدون العطف ويسألون عما أغضبه ... وتكهرب الجو بين رجال الجماعتين حتى امتدت الايدى إلى السيوف ... لكن سرعان ما خيم السكون ، وأفسح الطريق ، وألفى جارسيا نفسه وجها لوجه أمام هرنان كورتيز ...

كانت هيئة القائد العام تنم عن الغضب ، وقد قال فى صوت جاف عاصف :

— أريد الحقيقة فيما حدث ، وأرجو ألا يكون صحيحاً ما بلغنى ... هل هاجمت الاب للجليل ايناسيو دى لورا حين ترجل عن جواده وهو لا يتوقع شراً ، بينما كان عاديث بعض الرجال ؟ ..

فأجاب جارسيا وهو يواجه نظرات القائد العام المستطيرة فى ثبات ورباطة :

— نعم يا صاحب السعادة ... ولو رأيته قبل ذلك لسارعت بالهجوم عليه قبل أن يدركه إنسان ...

— ولأى سبب ، غير الجنون ، هاجمت هذا الرجل المقدس ؟ ..

فأجاب جارسيا وقد انتفخت أوداجه وانهالت الكلمات من فيه كالحمم :

— لان هذا الخنزير قد نال أمى بكافة ألوان التعذيب ! .. لأنه كسر كل عظامها



حتى راحت تتوسل اليه أن يميتها ! .. لأنه بعد أن استحل الرشوة وأخذ ثمانمائة جنيه للابقاء عليها ، أرسلها إلى المحرقة ! .. لأى سبب ؟ .. إن لم يكن فى هذا ما يكفى فانى أستعذب الجحيم إذا تمكنت من تمزيق جثته النتنة عضواً عضواً ...

وكان جارسيا يغوه بهذا محتبس الصوت متحشرجا . . فسرت فى زملائه دمدمة الغضب وهمسات العطف والرثاء ، بينما قال كورتيز بلهجته الحادة :

— هذا سبب وجيه من وجهة نظرك ، إن كان ينطبق على الحقيقة . .

فقال بدرو :

— أقسم بالله أن هذا هو الحق لاريب فيه . .

فانبرى كورتيز يقول متوهج العينين :

— ومن سألك أن تقسم ؟ هل حسبتم أنى يعنينى ما لهذا الرجل من خصومة شخصية؟ إنما يعنينى فى المقام الأول اجتراء هذا الرجل على انتهاك قوانين الجيش بمحاولة قتل واحد من أفراد الحملة ، تأهبوا بأن المعتدى عليه الأب ايناسيو من رجال الدين المقدسين .. وليست هذه بالمرة الأولى .. فقد سبق الاجرد سيفه على الكابتن بلاسكودى ليون وهدد بالخطر حياته وحياة آخرين .. وقد تجاوزت عنه حينذاك لأنه كان ثملا مخموراً .. أما الآن فلا عذر له ، وسأثبت للجميع أن قوانين الجيش يجب ألا تكون محل العبث والاستهتار !

ونظر كورتيز حوله واستقر نظره عند اندريه دورو أحد رجال حملة كوبا . . فقد صح عنده أن يعهد باعتقال جارسيا إلى الحزب الذى ينتمى اليه الأب دى لورا حتى يقيم الدليل على أنه بعيد عن محاباة رجال الحملة القدماء . . ثم إنه لايطمع عند رفاق جارسيا أن يشتدوا فى حراسته وهو المحبوب بينهم .. ولذلك قال لاندريه دورو هذا :

— عليكم بحراسة هذا الرجل وتشديد الرقابة عليه حين تم محاكمته غداً

وسرعان ماتدخل بدرو قائلا :

— مر بالقبض على أيضاً ياصاحب السعادة .. إنى وجارسيا سوف نتقاسم كل ما يحل بنا

فرد كورتيز قائلا :

— إذا لزم تلقين درس للطاعة والنظام لعشرين من العصاة المتمردين فانى والله

فاعل ذلك ! .. أأنت جندى أم لا يا كابتن دى فارجاس ؟ إن لم تكن جنديا فتقلد سيفك !..

وقد تردد بدرو حين أوشك على تنفيذ هذا العزم .. فانه لن يفيد جارسيا بشىء ، ولن يغنى عنه فتيلا إذا قاسمه السجن .. ذلك وقد صاح جارسيا :

— لئن سلت سيفك يابدرو فسوف ألوى رقبتك !.. لاتدع هذا الشاب يتهور ياسيدى القائد العام !.. إنه صغير ومتسرع ؟ إن هذا شأنى وحدى . . ولا أريد أن يساندنى أحد !

وأشار كورتيز إلى بدرو بتنفيذ الأمر ، فأحيط بجارسيا وسير به إلى معتقله ..

والتفت كورتيز إلى الكابتن أوليدو قائلا :

— عليك بتشكيل محكمة عسكرية غدا يختار أعضاؤها من ضباط لايكونون موالين للسجين ولا معادين له . . على أن هذا لن يغير من طبيعة الحكم شيئا .. والآن ، لابد من اجتماعى بالكابتن الفارادو .. فانه جعل الأمور هنا تسوء وتتفاقم .. ولا أريد أن يزعجنى أحد منكم بمثل هذه السفاسف !

## الفصل العاشر

كان الاجتماع الذى تم بين كورتيز والفارادو عاصفاً صاخبا . . فقد خرج الفارادو فى نهايته محتقن الوجه والعينين ، وقاع هنا وهناك على الأثر أن القائد العام اعتد فى لوم نائبه بسبب تصرفاته التى أدت إلى مجزرة مايو فى ساحة المعبد الأكبر

ومن ناحية أخرى فان الفرح باتحاد الصفوف بين رجال الجانبين لم يدم طويلا . . ذلك أن رجال نارفايز اضحوا يشعرون بالمرارة بعد هزيمتهم وغدوا ينظرون شزراً إلى قاهريهم ، هذا إلى أنهم قد خابت ظنونهم بعد الذى شاهدوه من اقفار المدينة وانكماش معالم الحياة فيها بعد المذبحة الروعة .. أما المغاربون القدماء من رجال كورتيز فكانوا ينظرون إلى القادمين الجدد نظرة الترفع والاستعلاء ..

ثم جاء حادث جوان جارسيا وعدوانه على الأب ايناسيو دى لورا فزاد الطين بلة بين رجال الفريقين ...

وقد تجلى شعور الجفاء على أشده فى مأدبة العشاء التى أقامها كورتيز تكريما لضباط



الحملة الجديدة ودعا اليها ضباطه وكبار معاونيه . .

فقد جلس الفريقان متواجهين على المائدة وكأن بينهما هوة سحيقة لايمكن تخطيها . . .

وكان أشدهم جفاء وتجهما بدرو دى فارجاس الذى حرص على أن يشيح بنظره عن طرحه الأقط دييجو دى سيلفا ...

وبدأت العاصفة حين اتجه الأب إيناسيو دى لورا رئيس محكمة تفتيش جاين بحديثه إلى الأب برتلوميو أوليدو ، إذ مال نحوه عبر المائدة وقال وهو يبتسم ابتسامة لاذعة :

— إنى طالما تساءلت عن مصير تلك الرسالة التى بعث بها أسقف سنتياجو إلى الجنرال كورتيز فى ميناء ترينداد ! لعلك تذكر أيها الأب برتلوميو أنى تحدثت اليك عن هذه الرسالة عندما زرت معسكراتنا فى سان اولوا ؟

فصوب الأب أوليدو نظرة تشف عن القلق إلى ناحية بدرو الذى جلس غير بعيد عنه ، ولكنه كان لحسن الحظ منهمكا فى الحديث مع الكابتن تايا . . ولذلك أجاب قائلا :

— نعم أيها الأب ايناسيو ، وقد أخبرتك فى ذلك الحين أن الرسالة فقدت ..

ثم أردف الأب أوليدو بلهجة ذات مغزى :

— ثم إننا تناقشنا فى هذا الموضوع مرة أخرى فى مدينة ڤيرالا بحضور سعادة القائد العام قبل أن يتم الانفاق نهائيا على قدومك الى هذه المدينة للكنيسة . .

وفى الحق أن كلمات أوليدو تضمنت تذكيراً وتحذيرا . . فقد بين كورتيز للأب دى لورا فى تلك المقابلة أن الانتهاكات التى يوجهها الى اثنين من رجال الحملة الأولى لن يكون لها أدنى اعتبار ولا وزن فى أسبانيا الجديدة ، وأن على إيناسيو إذا لم يقبل هذا القرار أن يبقى حيث هو فى المنطقة الساحلية ..

بيد أن إيناسيو لم يقنع بهذا التحذير الذى واجهه به أوليدو ، بل قال فى إصرار :

— لو أن تلك الرسالة لم تفقد منك كما قلت لنا كان هذا الاعتداء الذى وقع اليوم على شخصى ..

وهنا تدخل كورتيز فى الحديث ، وكان مرهف السمع لكل مايدور ، فقال مخاطباً دى لورا :

— فى الحق أنى آسف لما حدث كما أخبرت نياتكم .. إن جارسيا تصرف تصرف الجبانين ، وسيكون جزاؤه الشنق حتما .. فماذا يمكن أن نفعل أكثر من هذا ؟ وعلام تكرار الحديث فى هذا الموضوع ؟!

فقال دى لورا وهو يرمق بدرو من زاوية عينه :

— لأن محاولة الاغتيال الثانية قد تنجح يا سيدى القائد ، وإنى ما عبرت الفيط لكى ألقى حتفى على أيدى أفراد من الكمرة الأشقياء ..

وقبل أن يجيب كورتيز تدخل ساندوفال محتجاً على نعت زملاء له من خيرة رجال الحلة بالكمرة الأشقياء ، وحذر الأب دى لورا من التمادى فى مثل هذا للسلك .. وهنا خف أحد ضباط نافارا للدفاع عن الأب وشد أزره ، واستحال الحديث إلى تماش حاد بين ضباط الجانبين كاد ينقلب الى مخاصمة سافرة لولا أن بادر كورتيز بالتدخل ورد الفريقين إلى جادة النظام منذراً باستخدام سلطته كقائد عام ضد المتمادين ..

وهكذا انتهت الشحناء .. واستؤنف الحديث بعد ذلك على الصورة العادية المألوفة ..

وأما بدرو دى فارجاس فقد جلس الى المائدة يشارك رفاقه الحديث وهو يتحاشى النظر إلى دييجو دى سيلفا ، وإن كان ملقيا سمعه برغمه إلى ما يدور من حديث فى الناحية القاصية .. فسمع وهو ينظر إلى صحفته من يقول لغريمه بصدد القرط الذى يتدلى من أذنه :

— هذا قرط بديع يا كابتن دى سيلفا !

— نعم .. هذا رأيى أيضا .. وهو هدية من زوجى لحظة الوداع .

إذن فقد تزوج هذا النذل ..! الا شك أن هذا قد وقع بعد رحيل بدرو ..! ترى من تكون تلك التى ارتضت مثله زوجا ؟

وسمع بدرو محدث دى سيلفا يقول له :



— إنى أستأذنك فى شرب نخبها .. ولست أشك فى أن جمالها يفوق بهاء لآلئها ..

نخب الليلة لويزا دى سيلفا دى كارفجال ..!

شعر بدرو بجأة بالهم يغور فى صدغيه .. بينما قال دى سيلفا بعد أن شرب النخب :

— شكراً لك أيها الصديق .. إن لويزا موفورة الجمال .. وإنى لم أنعم بمشرتها إلا فترة قصيرة قبل إبحار الأسطول من أسبانيا ..

ثم أردف دى سيلفا ضاحكا :

— على أنها إذا حملت عند عودتى وولدا ووريثا ، فلا شك أنه سيكون من صلبى ..

وقلق الكابتن تايا الجالس الى يمين بدرو عما رآه قد ألم بصاحبه ، فسأله ما به ..

فتمتم بدرو :

— إنى بخير .. وإنما هو من أثر الجرح القديم الذى أصيت به فى فيلاريكا ، فانه أحياناً يؤثر فى هذا التأثير ..

وجلس بدرو مطرقا يجاهد لكبت مشاعره ..

أحق ما سمعته أذناه ..؟

أحق أن أميرة أحلامه ، ومناط قدسيته ، وملاك روحانيته ، قد أضحت زوجة دى سيلفا ..؟!

سرعان ما تملكه جنون .. ولم يحتمل عذاب الجلوس فى هذا المكان ..

لقد شق عليه أن يحتمل أثقال الجلوس مع غريميه اللدودين ، وأن يكابد العذاب الذى يعانيه من أجل جارسيا .. أما أن يستمع الى هذا ..!

وإذا هو يلتفت إلى تايا قائلا :

— أرجو أن تعتذر لسعادة القائد العام بالنيابة عنى .. فان رأسى يدور من أثر جرحى القديم كما قلت لك .. طاب ليلك ..

وانتهز بدرو فرصة انهماك القائد العام فى الحديث ، فنهض من مكانه وانسحب من الغرفة ..

●●●

خرج بدرو إلى ظلام الليل وقلبه أحلك ظلمة بهذا المصير الذى ينتظر أعز أصدقائه ، ويهدم صرح أحلامه بعد الذى سمعه الآن من أنباء لويزا ..

وفى الحق أنه لم يتقم منها أنها تزوجت .. فهو يعرف أنهـا لا بد قد أكرهت على هذا الزواج اكراها .. ولكن زواجها من دى سيلفا أحال وجودها فى نفسه إلى شىء يشبه العدم ، واطفأ سراجها الوهاج الذى كان يشع فى قلبه ونير دنياه .. ولو أنها تزوجت شخصا آخر لاختلف الأمر .. ولكن امتزاجها بهذا الوغد الزنيم دى سيلفا قد جردها من طهرها وقدسيتها ، ودنسها تدنيسا ...

والتقى فى طريقه إلى غرفته بكاتانا عائدة من زيارة جارسيا فى سجنه ، فسألته إن كان ثمة أمل فى نجاة هذا الصديق العزيز ، فهز رأسه سلبا وأردف قائلا :

— ليتنى أموت بدله غدا ...

جزعت كاتانا من لهجته ومن هيئته .. فراحت تسائله فى لهفة عما به .. ولما لم يجبها قالت وهى تتفرس فى وجهه :

— ألم تعد تحبنى ؟ ..

فأيقنه هذا الكلام من كربه ، وإذا هو يهصرها بين ذراعيه هصراً حتى أبكاها وقال لها:

— قولى مرة أخرى إنى لا أحبك يا كاتانا !.

قالت وهى تكاد الضحك :

— إنى بلهاء حقا .. لكنك روعتنى بحالتك وحديثك .. أعطنى منديلك ، فقد أسلت دموعى ..

وفجأة خطر له خاطر .. فمد يده إلى جيبه الداخلى وأخرج منديل لويزا من حرزه الجلدى وقد غدا مصفرا باهتاً .. وقدمه لكاتانا قائلا :

— اليك هذا المنديل ...

ولما قطبت كاتانا اليه حدقت قائلة :

— منديلها ؟. لماذا ؟.

— ولم لا ؟ . إنه بقى بالعرض ... احتفظى به أو مزقيه ... لكن إياك أن تقولى مرة أخرى إنى لا أحبك !.

فقالت وقد توهجت عيناها :



— منديلها ! . أصغ إلى ياحبيبى .. يجب ألا تكون بيننا أسرار ... لنتكلم فى هذا الموضوع لآخر مرة . ما الذى حدث بينك وبين السيدة لويزا دى كارفجال ؟.

فأجاب وكانت نظراته أفصح من كلامه :

— إن اسمها قد اختلف .. فهى الآن تدعى لويزا دى سيلفا !.

## الفصل الحادى عشر

لم تستغرق محاكمة جوان جارسيا وقتاً طويلا ..

وقال له كورتيز قبل صدور الحكم :

— اسمع ياسيد جارسيا .. إذا انحازت هذه المحكمة إلى الرحمة ، وإذا عدل الحكم إلى الغرامة والسجن ، فهل تقسم بشرفك كجندى أن تكف عن كل محاولة فى المستقبل للاعتداء على حياة اجناسيو دى لورا ؟ .

فأجاب جارسيا بصوته الدوى وهو راقع الرأس رغم تكبله بالقيود الثقال :

— مع تمام احترامى لأشخاصكم أيها السادة فانى لن أفعل شيئا من هذا القبيل .. ما دمت على قيد الحياة ، فلن أكون جنديا ذا شرف إذا لم أقتص منه لأبى !.

فقال كورتيز ساخطا :

— هل تقدر معنى هذا الكلام ؟ .

— نعم ياسيدى .. ولن يهدأ لى بال حتى أستوفى هذا الدين وسيان عندى عشت أو مت شنقا ..

فقال القائد العام :

— حسنا .. إنك لا تترك لى سبيلا للاختيار ... لقد انتهت المحكمة إلى ادانتك ، وقد حكم عليك بالاعدام طبقا للقوانين النافذ عليها فى هذه الحالة .. وكان الحكم الأصلى يقضى باعدامك حرقا لاعتدائك على قسيس من رجال الدين ، لكن المحكمة رقت بك وخففت الحكم إلى الاعدام شنقا .. وسيكون التنفيذ غداً ظهراً ، أى فى السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٥٢٠ .. وإذن فأمامك أربع وعشرون ساعة تستعد فيها للقاء ربك ، وأرجو ألا منه للتفرة !.

أما جارسيا فقد راح يحدق أمامه رابط الجأش وقد وطن النفس على ملاقاة الموت

ببسالة الجندى الشجاع . . وكان ضباط الحكة الأربعة من أفراد الحلة الأصلية عابسين مكتئبين . . أما الأربعة الآخرون من ضباط نارفايز فكانوا راضين مغتبطين . .

ثم استطرد كورتيز وقد خفف من صرامته :

— لقد فرغت من الكلام كفاش .. أما الآن فسأتكلم كرفيق وزميل قديم ، لا هنا فقط ، بل فى اسبانيا كذلك . . فى الواقع يا جوان جارسيا إنك حملتنى عبئا ثقيلا فانك فى معارك أسبانيا الجديدة هذه قد حاربت ببسالة واقدام . . وليس من الهين عندى أن أحاكمك وأحكم عليك .. لكن القيادة ليست بالعبء اليسير ..

فأجاب جارسيا :

— لقد فعلت ما كنت أفعله لو كنت مكانك يا هرنان كورتيز . . ولست أضمر لك فى نفسى حقداً ولا ضغينة . . وبالله ماذا كان يكون مصير هذه الحلة بغير القانون ؟ إن . . . .

وسكن قطع على جارسيا حديثه صوت قاصف عقبه هرج شديد وترا كض أقدام مهرولة .. فأسرع كورتيز يتبعه أعضاء الحكمة والنظارة إلى الشرفة يستطلعون الخبر فلاح لهم فوق درجات السلم المؤدية إلى الشرفة جمع من الجنود يفسحون الطريق لرجل كان يترنح وهو يرتقى الدرج قاصداً إلى مكان كورتيز . . .

كان القادم رسولا أوفده القائد العام فى الصباح فى مهمة إلى خارج المدينة .. وقد وقف الآن بين يدى كورتيز يسعل ويبصق دماً ويده على صدره ، وراح يقول :

— إنهم حملوا السلاح ياصاحب السعادة ! .. انهم ألوف مؤلفة ! .. انهم أمسكوا السكى أفلت منهم ! .. انهم قادمون إلى هنا .. من كافة الطرق والقنوات ! .. لا وقت أمامكم يا صاحب السعادة . . .

وخر على وجهه .. فاذا فى ظهره سهمان من أسهم الهنود الحمر ..

وإذا المدينة التى كانت بالأمس صامتة مهجورة ، تموج بأصوات مدوية تزيد اقترابا وتعالياً وكأنها طوفان جائح ..

وسرعان ما تولى كورتيز إصدار أوامره قائلا :

— إنهم يريدون درساً قاسياً ، فسيكون لهم ما يريدون . . كابتن أورداس ! . .



اخرج على رأس أربعمائة من الرجال للاستطلاع وتأديب هؤلاء الكلاب ! . . كابتن ألفارادو ! . . عليك بتحصين مواقفنا الدفاعية ! . .

واتهز بدرو الفرصة فاجترأ على مخاطبة القائد العام فى أمر جارسيا .. فقال كورتيز:

— أعيدوه إلى السجن .. فسيقف فيه الحكم غداً كما قلت . . كابتن أوليد .. أشرف على استعدادات فرقة الفرسان .. كابتن ساند وقال ، مر حملة النفير بالدعوة إلى اجتماع عام ! . .

## الفصل الثانى عشر

خرج الكابتن أورداس للقاء الأزتيك المهاجمين على رأس أربعمائة من المشاة . . فلم يكادوا يبتعدون عن القصر حتى لطمهم الطوفان البشرى من فوقهم ومن تحت أرجلهم فارتدوا على أعقابهم جرحى ممزقين مدحورين ..

وإذا كان أصحابنا هؤلاء يعنون النفس بشىء من الراحة يستأنفون بعده المعركة فانهم كانوا واهمين . . إذ سرعان ما انهالت على ساحة القصر مئات القنابل اللهبية يلقيها الأزتيك من أسطح الدور ومن قمة العبد الأكبر ، مقترنة بالنبال والحجارة المنطلقة من تلك الكتل البشرية المهاجمة ، فاعتقد فى الجو دخان كثيف وغبار خانق ، وكثر عدد الجرحى والقتلى فى كل مكان ..

وخرج كورتيز على رأس فرسانه مدرعين ملثمين شاكى السلاح ، فهجموا على عدوهم هجمة صادقة بعد أن سبقتهم للدفعة قصد الأزتيك حصداً ، فاستطاعوا إخلاء الميدان الكبير من جموعه ، وحسب كورتيز أن المعركة قد انتهت ، وأن الأزتيك قد ارتدوا على أعقابهم مدحورين مضعضعين ، ولكن نظرة إلى إحدى الطرقات دلته على أنهم قد رابطوا خلف استحكامات ومتاريس أقاموها ، ثم انبعثت قذائفهم من كل مكان تصفر وتهوى فوق الرؤوس من جديد ..

فرسم كورتيز خطة جريئة للاستيلاء على العبد الهرمى الأكبر حتى يسيطر منه على شطر كبير من المدينة .. والتحم وفرسانه بالأزتيك المعتصمين بالمعبد فى معركة إبادة رهيبة إن يكن الاسبان قد دفعوا فيها ثمناً غالياً ، فقد كتب لهم النصر ، وظهروا المعبد

من عنقه ، وجمعوا أصنامه تحطيما من بعد ، وأشعلوا النار فى هيا كله على مرأى من الأزتيك الصارخين النادبين ..

فلما كان المساء والتقى بندرو بالقائد العام فى ساحة القصر ، حياه قائلا :

— لى كلمة ياصاحب السعادة ..

فقال كورتيز وهو يمسح جبينه بيده بعد أن رفع بعض دروعه :

— خيراً ؟ ..

— إن جوان جارسيا أقسم لى بشرفه العسكرى أن يكف عن كل عدوان على حياة إيتاسيو دى لورا حتى يأمن الجيش على نفسه .. وهو يود أن يقوم بواجبه .. إنه جندى باسل .. ونحن فى حاجة إلى كل رجل ..

تمثال كورتيز بلهجة من يستجمع أفكاره المشتتة :

— نعم .. نحن فى حاجة إلى كل رجل .. حسنا .. أخرجه من السجن .. لكن أفهمه جيداً أن الحكم ضده ما زال قائما ..

— سأفعل ياصاحب السعادة ..

* * *

اجتمع مجلس الضباط ليلا .. وكانوا مغبرى الوجوه من الرق والتراب ، بعد أن قطع عنهم الأزتيك الوارد الآتية فلم يبق لهم ما يتقاتلون به .. ولو نظرت اليهم لرأيت من أمرهم نكراً .. فالسجن مكفهرة .. والشعور شعثاء .. والأصوات متهدجة .. والعيون قلقة .. والشفاه ملتطخة بالدماء .. وكورتيز نفسه مجروح فى ذراعه ..

فأما رجال نارفايز فقد امتلأت نفوسهم مرارة وسخيمة بعد هذه الشدائد والأهوال وقد قيل لهم إنهم سيدخلون عاصمة المكسيك فيجدون شعبا طائعا وديعا مستكينا .. فعلام البقاء فى هذه المدينة اللعينة وقد عز فيها كل شىء حتى القوت الضرورى للانسان؟ لا شك أن الجلاء عنها هو خير سبيل .. ولا شك أن التعجيل به هو الخطة المثلى قبل فوات الأوان ..

وأما المحاربون القدماء من رجال كورتيز فكانوا يتواسون بالصبر والتماسك والجلد .. إن هذه مدينتهم وقد كسبوها بالدماء .. لكن ماذا بعد البقاء إلا الموت جوعا فى أخف القولين ؟!



وقال لهم كورتيز بعد استعراض كافة الظروف والملابسات :

— هذه هى الحقائق ساقرة أيها الاخوان .. فهل نتخلى عن الغنيمة أو نغادر الكرة من جديد ؟ إن بأيدينا أوراقا أخرى نستطيع أن نلعب بها ..

وكانت أولى هذه الأوراق هى الاستعانة بمترومما لتهدئة شعب التلاكسكالتيك .. وقد أبى الامبراطور الأسير أول الأمر أن يتطلع بهذه المهمة لعدم جدواها بعد أن تودى بأخيه ( كويتلاهوا ) امبراطوراً على الازتيك .. بيد أنه مع ذلك قبل الوساطة تحت الالحاح والضغط ، واعتلى الأسوار وأنشأ يخاطب الجماهير الغاضبة خطابا بدا فى الأسماع هازلا مجدفاً من الروح والسلطان .. وإذ كانت الجماهير قد ألفت اليه سمعها وخيم عليها الصمت لمرآه ، فسرعان ما تعالت بعض الأصوات من هنا وهناك ، وبادر الأسبان على الأثر برفع دروعهم لوقاية شخص الامبراطور الهيض الجناح ، ولكن بعد فوات الأوان .. فقد أصابته إحدى القذائف الحجرية فى رأسه إصابة بالغة نقل على أثرها محمولا الى مقره .. ولم تنقض هذه الليلة حتى فاضت روحه بين أسف الأسبان ونواح ملكيته ..

وتولى أتباع الامبراطور الراحل نقله الى الميدان الكبير الذى أقفرت أرجاؤه من الازتيك وانعقد فيه صمت القبور .. فان ما عجز عنه هجوم فرسان الاسبان قد حققه عدوان الازتيك على امبراطورهم .. فقد انسحبت جموعهم من الميدان مروعة خجلى ولم يعودوا إلى هذه البقعة الملعونة .. ولكن آذان الأسبان المرهفة كانت تسمع على مبعدة أصوات النذب والعويل على الامبراطور الصريع الناهب ..

● ● ●

وانقضت أيام رهيبة عصيبة تكررت فيها محاولات الأسبان لاحباط هجمات الازتيك المتكررة ، ولكن دون جدوى .. فقد كانت محاولاتهم تنتهى دائما بالخسائر الفاجعة فى الرجال والعتاد .. ولم يبق أمامهم بد من اختيار أحد أمرين : إما الفرار من المدينة أو الموت والفناء ..

لكن كيف السبيل الى الفرار والافلات وقد دمر الازتيك كافة الجسور

والسدود والمعابر التي تصل المدينة بالأقاليم الخارجية ، وبات الاسبان محصورين في القصر خلف شبكة من القنوات والبحيرات ؟.

هنـــالك استقر العزم على إنشاء كوبرى متحرك تستخدمه الحملة في عبور المعابر الثانية ، على أن يتم انسحاب الجيش كله ليلا تحت جنح الظلام ..

## الفصل الثالث عشر

احتشد الجيش الاسباني في الظلام الحالك في ساحة القصر الرحبة الواسعة الأرجاء ولما كان الأزتيك قد انسحبوا من الميدان الكبير والشارع المجاورة له عقب مصرع مونتزوما ، فقد كان المأمول عند الاسبان ألا تنتهي إلى مسامع الأزتيك أصوات التأهب لانسحاب الجيش التي لامعدى عنها مهما يكن من التزام أسباب الهدوء والتوسل بالصمت . والواقع أن الاسبان كان يناهز عددهم ألفاً ومائة ، أما حلفاؤهم من الهنود الحمر من غير الأزتيك فكانوا بضعة آلاف ، يضاف اليهم مدفعية قوامها ثلاثون قطعة ، وجياد تناهز الثلثمائة .. ومهما يكن فقد كان لهم في الظلام التكاثف وفي المطر التهاطل خير عاصم من العيون المتلصصة ..

وكان في طليعة الصفوف الفصيلة المكلفة بنقل الكوبرى المتحرك بقيادة مارجريتو وقد صنع هذا الكوبرى ليكون معبراً فوق الفتحات الثانية في البرزخ الممتد عبر البحيرة ويلي هؤلاء الكابتن سادوفال مع فصيلة مؤلفة من عشرين فارسا وسرية من المشاة قوامها مائتان وفرقة من هنود (تلاسكالا) .. ثم يجيء قلب الجيش تحت قيادة كورتيز مع غالبية الفرسان وبعض المشاة والمدفعية ، وفرقة أخرى من الهنود والعتاد وصناديق الكنز المخصصة لملك أسبانيا ... وتأتي في المؤخرة غالبية المشاة تحت قيـــادة الفارادو وبلاسكو دي ليون ، تعززها المدفعية ، وتنتهي الصفوف بفرقة أخيرة من الهنود الحلفاء وعهد إلى بدرو دي فارجاس وبعض الضباط الآخرين بالاشراف على نظام السير وترتيب الصفوف طبقا للخطة عليه ..

وكان لطول الانتظار والترقب مع الظلام والمطر أثره في توتر الأعصاب والشعور بوطأة الموقف وحرج الساعة ، خصوصا وقد نال من السواعد ما نحمل من سلاح ومن سبائك الذهب التي ترك كورتيز لمن يشاء أن يحمل منها ما يشاء قبيل الرحيل ..



ثم فتحت أبواب القصر الخارجية أخيراً وأعطيت إشارة السير وقد بلغت القلوب الحناجر . فتقدمت فصيلة الكوبرى المتحرك يحملها الضخم الثقيل تتلوها جنود الطليعة وسار بدرو بجواده عن كثب منهم في ظلام حالك ووحشة تامة وكأن المدينة المكتظة قد أقفرت من ساكنيها ..

ماذا دهى الأزتيك وأسكتهم ؟ . أغلب الظن إنهم استلموا إلى الجسر الاسبان عن عبور فتحات البرزخ عبر البحيرة بغير القنطرة اللازمة لهذا الغرض ، ومن ثم أخلوا لهم الطريق وهم لا يعلمون ما يدبرون !..

وكانت المسافة بين القصر والبحيرة لا تجاوز ألف قدم ، ولكن خيل لبدرو أن فصيلة الكوبرى المتحرك قد قطعتها في دهر داهر قبل وصولها إلى الفتحة الأولى التي تفصل المدينة عن البرزخ .

وقد تم تثبيت الكوبرى عبر الفتحة الثانية بنجاح ، وأنشأت الطلائع تجتازها إلى القطاع التالي من البرزخ دون أن يقع مايكدر أو يريب ، وعاد بدرو أدراجه لابلاغ كورتيز ما تم وهو في قلب الجيش ..

بيد أنه لم يمض إلا قليل حتى تعالت الصيحات من أواسط المدينة واستحالت إلى ضجيج متزايد .. فلم يكن بد من الاسراع في السير حتى يستوى الجيش كله على البرزخ عبر البحيرة ويبتعد عن المدينة بشوارعها المتداخلة وقنواتها المتشابكة ... ومتى اجتاز الجيش الفتحة الأولى من فتحات البرزخ أمكن رفع الكوبرى وبقيت الفتحة فاصلا تحول بين المطاردين وبين مؤخرة الجيش ..

ولما تم لبدرو ما أراد من ابلاغ كورتيز انضم ثانية إلى جنود الطليعة وهم يعبرون إلى البرزخ حين استحال الليـــل كله إلى ضجيج وعجيج من كل جانب وكأن أبواب جهنم قد تفتحت عن آلاف من الشياطين انطلقت صارخة صائحة هادرة مزمجرة .. وزاد من رهبة الموقف انبعاث دقات الطبل الكبير من المعبد فاصفة كالرعد متجاوبة تصك الاسماع وتزلزل القلوب ... واقترن هذا كله بخفق آلاف المجاذيف في مياه البحيرة من قوارب الأزتيك التي مضت تشق طريقهـــا إلى البرزخ ... ولم تمض إلا لحظات حتى أخذت النبال والقذائف الحجرية تشق الفضاء وتستقر في الأهداف ...

ولم تلبث مدفعية الفارادو أن انطلقت من مؤخرة الجيش تحصد جموع الأهلين المهاجمين من خلف فى الزحف البطىء شطر الكبرى المتحرك ... وفى هذه الأثناء كان قلب الجيش يعبر الفتحة الأولى إلى البرزخ حتى كف عن التقدم بعد الانضمام إلى الطليعة التى وقفت على أرض البرزخ أمام الفتحة الثانية ، وهنا ازدوج هجوم القوارب من جانبى البرزخ ، واختلط الحابل بالنابل فى هذا الظلام المتكاثف وفى أرض رخوة كانت تزل فيها حوافر الجياد ...

ومهما يكن فقد عبرت المؤخرة فى النهاية ... ووقف الجيش كله على القطاع الأول من البرزخ فى رقعة عرضها عشرون قدما وطولها ثلاثة أرباع الميل فكان كتلة كثيفة يتعذر على المهاجمين اختراق صفوفها ... ثم رفع الكوبرى المتحرك وحمل إلى الفتحة الثانية حين اشتد هجوم الازتيك فى توارهم من جانبى البرزخ وانهالت النبال والقذائف كالمطر واشتد الكر والفر والهجوم والدفاع على امتداد جناحى الجيش ...

واستوى بدرو على القطاع الأول من البرزخ فى المنطقة الامامية المشرفة على الفتحة الثانية ، فاذا جنود الطليعة بقيادة ساندوفال مشتبكون فى مناوشة حارة من الجانبين ومن أمام حيث كانت قوارب الأزتيك تملأ الماء فى تلك الفتحة ...

وتتابعت الدقائق واستطالت حتى ناهزت ثلاثة أرباع الساعة ، فاذا الهجوم من البحيرة يشتد وعنف حتى يتعذر صده ، وإذا جنود حملة المرفاز المتفلون بأحمال الذهب يتزايلون ويتضعضعون ، وإذا هذه الفصيلة المضعضعة تنزع من جانب إلى جانب وهى تصيح فى طلب الكوبرى المتحرك لتعبر به الفتحة الثانية ولكن ما من مجيب ..

هنالك يعتزم بدرو أن يعود أدراجه لاستطلاع ماحدث ... لكن الحوادث المروعة تتتابع وتتلاحق كالصواعق يأخذ بعضها بأذيال بعض فقد تداعى الكوبرى فى الارض من تأثير عبور الجيش كله حتى استحال رفعه ... وذبحت فصيلة مرجينو عن آخرها ... وأسرت مدفعية الفارادو ...

واستطاعت جموع من الأزتيك الوصول إلى أرض البرزخ ... وأيد جنود المؤخرة عن آخرهم ... وأحاط الأزتيك بالأسبان من كل جانب ... وضاع كل أمل فى النجاة ! ..



وفى تلك اللحظة تلاشى الجيش كجيش نظامى ، واستحال إلى شرذمة مجنونة تتدافع وتتصايح وتضرب هنا وهناك على غير هدى وقد تمكن منهم الأزتيك المهاجمون من اليابسة ومن القوارب وأعملوا فيهم تقتيلا وتذبيحا ...

## الفصل الرابع عشر

كان هم بدرو هو البحث عن كاتانا فى تلك المجزرة العظيمة التى لم يعرف لها مثيل ... فهمز جواده ورفع درعه بيد وشهر بالثانية سيفه يشج به الرءوس ويبتر البطون وهو فى خلال ذلك لا يكف عن مناداة كاتانا وجارسيا ...

وبينما هو كذلك إذ أصيب جواده بطعنة من الخلف فرفع قائمتيه الاماميتين وهو يصهل صهيلا مؤلما ثم هوى على الارض صريعا ، ولكن بدرو استطاع أن يقفز عن ظهره ، واستطاع الوصول إلى كاتانا وجارسيا فى ضوء الفجر البازغ وقد وقفا مع بعض الاسبان يدافعون عن أرواحهم دفاع الاستماتة والاستبسال ...

وقد هتفت كاتانا لسماع صوته ورؤيته ، وقالت كلاما لم يتبينه ، فصاح بها وبمن معها :

— ماذا تنتظرون هنا ؟ .. تراجعوا وانضموا إلى الصفوف ! ..

فصاح جارسيا يرد عليه :

— أية صفوف ؟ .. إنا معزولون هنا منذ نحو نصف ساعة .. ولم يبق أمامنا سوى المقاومة حتى الموت .. احترس لنفسك ...

ولم يلبث بدرو أن أدرك الموقف على صورته الحقيقية . . فلم يبق من الاسبان إلا شراذم تقاوم هنا وهناك .. ثم إن الأزتيك قد احتلوا هذا القطاع من البرزخ وقطعوا على من فيه خط الرجعة .. وكانت جثث الاسبان مبعثرة فى كل مكان وقد تناثرت حولهم تلك السبائك الذهبية التى حرصوا عليها حرصهم على الحياة فلم تغن عنهم من الموت شيئا وكان انهماك الأزتيك فى جمع الذهب المتناثر هو الذى هيأ لهذا الفريق من الاسبان فترة الاستجمام والتنفس إلى حين . .

واستطرد جارسيا يقول :

— لم يبق منا كثيرون . . فقد مات بلاسكو دى ليون . . وفقد الفارادو جواده وتراجع مع من بقى معه .. وقطع علينا الطريق ولم نستطع الانضمام إلى الباقين ...

عند ذلك أخذت بدرو الحمية ، فأهاب بمن حوله من الاسبان أن يتجمعوا ويتراصوا ويشقوا طريقهم على شكل دائرة متراجعين وهم يقاتلون حتى يستطيعوا الانضمام إلى من بقى من جملة الحملة . . وقد استطاع بدرو بحماسته وإيمانه أن ينفخ فيهم روح العزم والاستماتة فأخذوا يتراجعون وهم يقاتلون قتالا زهيدا ولكنهم كانوا يسقطون صرعى واحدا فى أثر الآخر حتى لم يبق منهم سوى كاتانا وجارسيا ومقاتل من قدماء رجال الحملة ورابع من رجال نارفايز . .

ومهما يكن فان بدرو ورفاقه الأربعة استطاعوا بهذا القتال الروع بلوغ حافة الفتحة التى تفصلهم عن زملائهم الاسبان ، فوثبوا إلى الماء يسبحون وقد شدمن عزمهم رؤية مواطنيهم فى الناحية المقابلة . . بيد أن الافلات لم يكن ممكنا بهذه السهولة فان قوارب الأزتيك أخذت تتعقبهم واستطاعت أن تصرع الاثنين الباقيين من رجال الحملة . . فلم يبق إلا بدرو وكاتانا وجارسيا وقد أخذ ثلاثتهم يجاهدون لبلوغ الشط وهم يقاتلون قتال اليأس حتى أدركت أقدامهم أخيراً الأرض الرخوة وهم يكادون يسقطون من الاعياء والضنى . .

لكن ما بال ذلك الاسبانى الذرع الواقف بأعلى الشط لايمد اليهم يد المساعدة ؟ . . من الجلى أنه أحد ضباط نارفايز ، وإن كان قناعه الفولاذى قد حجب وجهه فلم يستطع بدرو أن يتعرفه . . وكان زملاؤه الواقفون معه الذين يتولون حراسة الشط ضدهجوم الأزتيك من رجال نارفايز أيضا ، وكانوا يصيحون ببدرو وصاحبيه مشجعين مستحثين ولكن بدرو كان أحوج من هذا إلى تلك الحربة التى وقف الضابط للقنع متكئا عليها . ولم يقو بدرو على الصياح لفرط الاعياء فبسط ذراعه شطر الضابط وقد دنا منه فالحرب يقوده غريزة من الأزتيك ، وهتف بصوت محتبس وهو يجذب كاتانا خلفه :

— الحربة أيها الزميل !

فطالت الضابط أن أزاح قناعه ، وبدا من خلفه وجه دييجو دى سيلفا

وما برح متكئا على حربته ناظراً إلى بدرو تحت قدميه أسفل الشط صامتا أذنيه عن نداء الاستنجاد . . فكانت هذه الضربة أقطع وأوقع فى نفس بدرو من كل ما امتحن به حتى الآن . . .



وامتدت سواعد الأزتيك الفولاذية فأطبقت على بدرو وكاتانا وجارسيا و فوالهم وبطلت مقاومتهم وجرتهم إلى القارب

## الفصل الخامس عشر

كان الموت الذريع نصيب الثلث من الأسبان وقبائل تلاسكالا الذين أسرهم الأزتيك فى ليلة الانسحاب من عاصمة المكسيك . . فاما قلوبهم فقربان للآلهة . . وأما أجسادهم فلك متاع لآسريهم يأكلونها لحما طريا ساتغا فيه شفاء للأبدان والأرواح طبقا للطقس عليه طقوسهم الدينية القدسة . . ثم ان الازتيك قسموا أسراهم طوائف وفرزوهم أنواعا كما تفرز الماشية القدمة للذبح . . وكان محققا أن بدرو دى فارجاس ستكون له الأفضلية فى ولائم الموت هذه ، نظراً للمكانة التى عرفها الأزتيك فيه لدى الأسبان كتائب القائد العام يكرهونه أشد الكره ويهابونه على ذلك ويعجبون به . . ولما كانوا قد عرفوا فى كاتانا زوجته وجارسيا صديقه فلا عجب إذا استقر العزم على التضحية بثلاثتهم مقترنين متزاملين . . .

ونقل الثلاثة إلى ساحة المعبد المرى الأكبر فى المدينة حيث سيقوا بين صياح الجماهير الساخرة المستهزئة وهم عراة طبقا لطقوس القرابين القدسة إلى قفص خاص أفرد لهم بين الأقفاص العدة لأسرى الحرب ينتظرون فيها دورهم الموعود على الذابح . . .

ولما كان بدرو وكاتانا وجارسيا آخر الأسرى فان الأقفاص كانت مكتظة لدى وصولهم أى اكتظاظ ، وانبعثت أصوات حزينة حرى تناديهم ، ولكنهم كانوا فى شر حالة من الاعياء والحور والضنك فلم يلبوا النداء ، وما إن قذف بهم فى القفص ذى القضبان الشبكة حتى هووا على أرضه فى شبه إغماء .

وكان الطبل الكبير القائم فوق قمة المعبد المرى يدق دقاته التواصلة . . وامتلأ الميدان الأوسط بالمحاربين العائدين من معارك البرزخ وآلاف الاهلين القادمين للمساهمة فى أفراح هذا اليوم الشهود ، يوم الحرية والنصر . . ولم يمض إلا قليل حتى سيق نفر من قبائل تلاسكالا أحلاف الاسبان إلى المدرج المرى يصعدون اليه صعودهم الروع . . ثم انبعثت صرخة مدوية بين دقات الطبل تعلن بدء المراسم القربانية . . وهوت فوق المهرجات جثة دامية تتلقاها مدى الأزتيك المتعطشين إلى التقطيع والتمزيق

● ● ●

وأغلق بدرو من عيونه على أنين صادر من كاتانا .. وعندما كان ارتياعه إذ ألفاها ممددة فى بركة من الدم .. فهتف مصعوقا :

— يا إلهى السموات ! .. لم أعلم أنك جريحة ! .. »

فهزت رأسها وقالت من بين أسنانها المطبقة :

— لاتنظر خلفك ياسيد جارسيا .. ليقف كلاكما أمام القضبان حتى لا يراك أحد

— لكن ياكاتانا ...

— لا .. لاتنظر ! بالله .. لايهمنى أن أموت الآن ..

ثم أردفت بعد برهة :

— يسرنى أن المولود مات أولا .. فما أمام القضبان كما قلت .. إننى قوية أستطيع أن أحتمل .. لن يدوم هذا طويلا ..

فأطاع بدرو وجارسيا ، ووقفا أمام فتحات القضبان المشبكة الضيقة ينظران إلى ساحة المعبد وهما يسمعان أنين كاتانا المختنق .. وكان جارسيا يضرب على القضبان بقبضة يده ويقول :

— أيفعل هذا رجل من الأسبان ؟! .. أيتخلى عن بنى جلدته لهؤلاء الكلاب ؟! .. ولم يكن الأمر يكلفه أكثر من مد حربته الينا ؟! .. ثم أنه يفلت بعد هذا ويظل على قيد الحياة ؟.. الحق يا بدرو أنه لا عدالة فى هذه الدنيا ! ..

فلم يجب بدرو .. وكيف يجيب وقد عز عليه كل جواب ؟ لقد نسى فى هذه اللحظة لو قضت كاتانا نحبها ، حتى لاتساق إلى الذبح وتقدم قربانا للآلهة

ثم انبعث صوتها من الخلف مضنى خافتا بهذه الكلمات :

— هلا ناولتنى الماء ؟ لقد انتهى كل شىء .. لكن لاتنظر إلى الخلف

فناولها إياه الماء من ركن القفص وهو يعرض عليها المساعدة ولكنها ترفض ..

فعاد إلى جانب جارسيا يقول له :

— متى تظن أن يجىء دورنا ؟

فهز جارسيا رأسه قائلا :



— ربما كان الآن ، أوغدا .. إن الضحايا كثيرون ..

ولكن لم يكد يتم كلامه حتى وقف حارس من الأزتيك أمام القفص وفتح الباب .. فتحول بدرو شطر كاتانا التى كانت ممددة فى شبه إغماء وهم بتخليصها من الصير الروع المدخر لها .. لكن قلبه لم يطاوعه لأول وهلة ، ثم أفلت الأمر من يده بعد ذلك .. فقد ألف حبل حول ذراعيه فقيد حركاته وجذبه الى الباب .. وأما جارسيا فقد أراد أن يقاوم ، بيد أنه ما لبث أن تحالف .. ثم دلف اثنان من الحرس الى داخل القفص يدعوان كاتانا ، لكنهما كفا فى رؤيتها غارقة فى الدماء .. وقال أحدهما :

— ميتة ..؟

فأجاب بدرو بما وسعه من لغة الازتيك التى تعلم بعضها :

— فى طريق الموت ..

فوقف الحارس برهة مترددا ، ثم هز كتفيه وأمر باخراج بدرو وكاتانا وأغلق باب القفص خلفهما وسار بهما الى ساحة المعبد الأمامية ..

وقد أخرج الأسرى الأسبان الآخرون من أقفاصهم وأوقفوا صفاً واحداً تحت الحراسة الشاعنة .. وكان أغلبهم من رجال حملة نارفاز الذين أثقلتهم أحمالهم من سبائك الذهب فسهلت وقوعهم فى الأسر ، ولكن كان بينهم أيضا أفراد من رجال الحملة الأولى ، وكانوا جميعا عراة الأجسام ملطخين بالدماء فى حالة مزرية تنكرها العين

ووقف أمامهم فى الناحية القابلة فوج من زعماء الأزتيك بملابسهم الزاهية ورشهم الملون ودروعهم الزخرفة وحرابهم المسنونة وقد حمل فريق منهم بعض السيوف الاسبانية التى غنموها فى معركة الأمس ، وكان بينهم طائفة من كهانهم بمسوحهم السوداء ، وعن كثب منهم وقفت فرقة موسيقية تجرب طبولها ومزاميرها ..

ولم يتمالك بدرو أن تذكر وجود الأسبان فى ساحة هذا المعبد المرعى الاكبر يوم دخولهم اليه ظافرين ، ويوم مدجعة الفارادو .. فاذا الآية قد انعكست اليوم ، ودارت الدائرة على الأسبان .

ثم تألف الموكب القربانى من الكهنة والزعماء والحراس ونحو عشرين من الاسبان .. وتقدم الموكب بين دق الطبول ونفخ الزمور الى المعبد الحرمى وظل يرتقى

درجاته حتى اختفى عن نظر بدرو فوق قمة الهرم المسطحة .. وظل ذلك فترة انتظار مريرة جهد بدرو فى خلالها أن يتظاهر بالهدوء والجلد اتقاء لثبات زعماء الازتيك به وهم يترقبون قدره بين بنى قومه ..

وانبعثت صرخة مدوية بين دقات الطبول .. وسقطت جثة بلا قلب تتدحرج فوق درجات الهرم حتى استقرت عند قاعدته ، فخلفتها أيدى الكهنة تسارع بقطع رأسها وتمزيقها قبل أن تنهال فى أثرها باقى الجثث ..

وقال بدرو مخاطبا جارسيا حتى يشغل نفسه عن هذه المشاهد البشعة :

— كيف حالك يا جارسيا ..؟ مالى أراك سالما ؟

فأجاب جارسيا وكان يحدق فى الفضاء :

— من الضحك إنى كنت أفكر الآن فى ميدان الكاتدرائية بإسبانيا حين ا... وكنت أستعرض مشهد أمى وغيرها من ضحايا محاكم التفتيش عند تنفيذ الاحكام ضدهم علنا وتقديمهم للمحارق ا.. وكنت أفكر فى الأب دى لورا إذ ذاك ا.. لم يكن هناك هنود كما تعرف !! ..

أدرك بدرو مغزى هذه المقارنة .. وتذكر أعواد الحطب وقضبان المحارق ومشاهد الضحايا المحكوم باعدامهم بتهمة الكفر والزندقة ... وتذكر جثمان أخته مرسيدس وهى بين أيدى الجلادين ... أجل ا.. ما أشبه الليلة بالبارحة ، على تباعد الديار وتباين الأحوال ا ..

وتمتم جارسيا يقول :

— كانوا يفعلون ما فعلوا هناك باسم الدين ... وهؤلاء يفعلون مايفعلون باسم آلهتهم ... فأيهما الحق ؟ .. وأيهما الباطل ؟..

فقال بدرو وقد عز عليه الجواب :

— لندع التفكير فى هذا ياجوان ... ولنفكر فى الله ... فهذا كل ما بقى أمامنا ..

وقد تم حتى الآن تقديم ثمانين من الأسرى قرابين على مذبح الرب الأعظم لكن قربانه إله النار كان فى حاجة إلى نصيبه من الضحايا ... وذلك شكل موكب آخر من المحاربين الكهنة والحراس واختير له عشرون آخرون من الأسرى وسير بهم إلى معبد



الستديو فى نفس الساحة حيث قام تمثاله عن كثب من نار مشتعلة متلظية يغذيها الكهنة بالحطب ...

وبينما كان بدرو يرقب هذه المشاهد المروعة متكئا الجلد وهو يكاد يتخاذل إذ استرعى نظره مظهر هذا الرجل العارى القوس البكتين الملتحى الذى سبق بين الأسرى العشرين المختارين قربانا لاله النار ... وقبل أن يغرب عن ذهوله مع جارسيا يهتف مشدوها :

— إيناسيو دى لورا ؟ ! !

ما أبعد البون حقا بين الأب الجليل فى ردائه الكنسى وصرامته المعهودة وقسوته البتارة وبينه الآن وهو واقف عريان كما ولدته أمه مقيداً وعلى وشك الموت ! . . .

وكان دى لورا يحاول أن يتجلد ولكن أطرافه كانت ترتعد ارتعاداً ظاهراً وقد غمر العرق كيانه ... وجعل يدير حواليه نظرات زائغة وقد انخفض أنفه الأشم واختلجت شفتاه وراح يجرى لسانه عليهما بين فينة وأخرى ...

واستقرت نظرات دى لورا لجأة عند بدرو وجارسيا ... فعرفهما ... وتجلى فى عرفانه للماضى والحاضر فى طرفة عين ... ثم أشاح عنهما وقد تملكه من الروع ما تملكه ...

وسبق خمسة رجال إلى منصة قريبة حيث شد وثاقهم وحملوا فوق ظهور خمسة من الكهنة راحوا يطوفون بهم حول النار المشبوبة راقصين، ثم ألقوا فيها واحداً بعد واحد ترتفع صراخهم وعواؤهم وأخرجوا منها وما زالت الحياة تدب فى أجسادهم المتفحمة أسكى يقدموا على الهيكل وتجرى عليهم السكين ...

ونظر بدرو إلى جارسيا مستطلعا أفكاره فى هذه اللحظة ، فألفاه مطرقا يهمهم ببعض الكلام ... فبدا له أن جارسيا لا يطمع فى خير من هذا الانتقام الذى يوشك أن يحل بغريمه دى لورا ... لكن بدرو أسف أن يفكر صديقه فى الانتقام فى مثل هذا الموقف .. بيد أن بدرو نفسه قد فارقته كل رغبة فى الانتقام وتلاشى حقده السابق على دى لورا واستحال شعوره حياله إلى لون من الرثاء والاسى .

وقال بدرو مخاطبا صديقه :

— ماذا ترأيك الآن ؟

فنظر جارسيا إلى ناحية غريمه ثم أجاب وقد أطرق مرة أخرى :

— كفى ياصديق .. ألا ترى أنى أصلى من أجله ؟

ودنت اللحظة الرهيبة .. وأطبق الحراس على الأب دى لورا ليخرجوه إلى المقصلة . . فقال جارسيا متوجعاً :

— رحماك يارب ! هذا شيخ فان .. .. إنى دعوت عليه ، وأردت القصاص منه .. لكنى لم أقصد شيئا كهذا .. ارحمه يارب !.

لكن الحياة لم تفارق جسد دى لورا الأعجف وهم يخرجونه سارحاً من النار ، وظل يختلج حتى أسلمت فيه للدى والحناجر ..

وعند هذا الحد شيعت الآلهة من الضحايا والقرابين ، فأعيد باقى الأسرى إلى الأقفاص ينتظرون إلى غد مصيرهم الرهيب المحتوم . .

## الفصل السادس عشر

شد ما كانت دهشة بدرو وجارسيا حين أعيدا إلى القفص فإذا كانانا ممددة فوق حصير وقد غطيت بلحاف ونظف القفص من آثار الدماء . . بيد أنهما لم يخدعا بهذه المظاهر التى كانا يعلمان إنها ليست وليدة الرحمة ، وإنما هى الرغبة فى الابقاء عليها حتى تقدم قربانا للآلهة وهى فى حالة جيدة ..

وما كادت تراهما حتى رفعت رأسها وقالت فى إعياء :

— الحمد لله !.. إنى لم أكن أنتظر قط أن أراكما مرة ثانية . . ماذا حدث ؟. إنى لبثت أسمع صراخا كثيراً !.

فحاول بدرو أن يموه عليها ، بيد أنها قالت وهى تتفرس فيه :

— قل الحق .. هل نحن ميتون غدا ؟ ..

فأجابها فى غير اكتراث :

— هذه نيتهم .. لكن لاتهتمى ياعزيزتى ... فقد تجرى مشيئة الله بغير هذا ..

وفتح باب القفص وأدخل طعام وماء .. فان قربان الآلهة ينبغى أن يطعم حتى التخم



ولم يكن بد أن يقبل الثلاثة على الطعام حتى يتغلبوا مما هم فيه . . . ولكى ينسوا ما ينتظرهم غدا راحوا يتحدثون فى شئون الجيش وفيمن نجا من أفراده وهل يقدر لهم بلوغ إقليم تلاسكالا ثم المناطق الساحلية فى أمان . .

وقال بدرو فى هذا الصدد :

— إن حالهم لا يبشر بخير .. فقد ذهب نحو ثلثى الجيش بين قتلى وأسرى ، ولم يبق للناجين جيـــاد ولا مدافع ولا ذخيرة ، وليس معهم سوى السيوف والدروع ، وأغلبهم جرحى ، والطريق إلى أقليم تلاسكالا شاقة طويلة بين الجبال ، وإن يخرجوا من الوادى دون الاشتباك فى معركة أو أكثر .. وبعد ذلك . .

وهز رأسه هزة معنوية وهو يختم قائلا :

— إن الأمل أمامهم ضعيف .. لكن إذا كان الجنرال كورتيز على قيد الحياة فقد يوفق إلى تحقيق هذه المعجزة . .

وفى خلال ذلك أرخى الليل سدوله ، وانقطع دق الطبول الصادر من المعبد الأكبر وانبعث الأنين المشترك من الأقفاص المجاورة التى ما زالت مكتظة بالأسرى وهم يندبون مآلهم ويستغفرون لذنوبهم قبل رحيلهم الأبدى عن هذه الحياة الدنيا . .

وقالت كانانا وقد غلبها الاعياء :

— إنى سأنام الآن .. لكن يجب أن نستيقظ قبل الفجر لكى نعترف قبل الموت..

ولما استغرقت فى النوم همس جارسيا :

— الآن ؟ . .

فأجاب بدرو وهو شارد اللب :

— لابد أن نرحمها قبل أن يفعلوا بها .. لكن لنرجىء هذا إلى الفجر حتى نؤدى واجب الاعتراف والصلاة ، وسأتم هذه المهمة بيدى ..

فتنفس جارسيا الصعداء لأن ازهاق روح كانانا لن يكون من نصيبه ، وغلبه التعب والنعاس فنام بدوره ، وبقى بدرو وحده ساهراً مسهداً يفكر جازعا فى الواجب الثقيل الذى فرض عليه وهو قتل كانانا بيديه تخليصا لها من فتك الأزتيك بها . .

ثم تملكه الاعياء وفرط الجهد بدوره ، فاستسلم النعاس وفى نيته أن يستيقظ بعد ساعات قلائل ..

***

استيقظ بدرو لدى إحساسه بالحبال تشد وثاقه ، وسمع جارسيا فى نفس الوقت وهو يسب ويسخب ، فأدرك أن الفرصة فاته لانقاذ كاتانا .

وأخرج الثلاثة من القفص وما زال الليل باسطاً جناحيه ، وشدت أعناقهم بحبل مشترك ، واقتيدوا من ساحة المعبد إلى الميدان ومنه إلى مرسى القوارب فى أقصاه . . .

ونقلوا إلى قارب كبير يحرسه عشرون أشداء ما لبث أن أقلع بهم شطر البحيرة ، ولم يتحقق بدرو من الوجهة التى هم ذاهبون فيها حتى سمع الهنود الحمر يرددون كلمة ( كويوا كان ) ، فأدرك أن الأزتيك ينتمون نقلهم إلى هذه المدينة التى تبعد نحو ستة أميال عن عاصمة المكسيك ، ولم يخف عنه السر فى هذا . فان مدينة ( كويوا كان ) قد ساهمت بنصيبها فى محاربة الاسبان الغزاة وفى قهرهم ، وهى الآن تطلب حصتها من الأسرى بتقديمهم قرابين على مذبح آلهتها ! . .

ومن عجب أن الوصول إلى ( كويوا كان ) لم يكن خاتمة المطاف فى هذه الرحلة الليلية الغريبة .. فما كاد القارب يحط فى مرساه حتى أسلم الثلاثة إلى طائفة من الحاربين الملثمين الذين أحاطوا بهم احاطة الذئاب بفرائسها ... ولم يقصدوا بهم إلى معبد المدينة لتضحيتهم على هيكلها كما كانوا يتوقعون ، بل ساروا بهم وسط المدينة الهاجعة حتى بلغوا أطرافها ، ثم استأنفوا السير بلا توقف فى أقليم صخرى مقفر ناهز امتداده خمسة عشر ميلا حتى دميت أقدامهم . ولكن الحاربين أمدوا كلا من بدرو وجارسيا بمنديل وحملوا كاتانا فى غير ترفق ولا مجاملة . .

وأخيراً وصلوا عند الفجر إلى شبه مدرج صخرى كان منتهى الطريق الذى سلكوه وفى أقصاه ربض إله الأزتيك الأكبر على هيكل عتيق ، فأيقن بدرو أن هذا المكان سيشهد ختام حياتهم ، وأن النيران لا تلبث أن توقد حيث يلقى بهم فيها طعاما للآلهة سائغا . . .

ودنا أحد الحاربين من كاتانا شاهراً مديته . . فأسرع بدرو إلى جانبها يحركه



غريزية ، ولكن شد ما كانت دهشته بل ذهوله حين رأى الهندى إنما يقطع القيود حول ذراعيها .. وشعر فى نفس اللحظة بقيوده هو أيضا تتقطع .

عند ذلك هتف جارسيا :

— ما هذا ؟ . .

ولم يتم كلامه حتى ألقيت على أجسادهم العارية ثلاثة أردية مزدانة بالريش . . .

فتمتم بدرو يقول :

— هذا جزء من طقوس التضحية ولا شك ... لكن إذا ...

لكنه سكت متعقد اللسان ... فقد ناوله أحد الهنود سيفاً عرف فيه على الفور سيفه الذى انتزع منه حين وقوعه فى الأسر . . فأردف وهو يخال نفسه فى حلم عجيب ويده تقبض على السيف :

— يا للشيطان ! . أيريدون قتالا ؟ . إن لهم والله ما يريدون ! . إنى ...

وإنما اشتد ذهوله هذه المرة حين دنا منه كبير الحاربين الهنود وكشف القناع عن وجهه .. فاذا هو كورتل ! .

وقال الزعيم الهندى بلهجته الاسبانية الفرجاء :

— ياسيد بدرو ! . إنك أنقذت حياتى مرتين .. الآن إنى أنقذ حياتك ..

***

خيم الصمت مطبقاً حينا . . وما لبث كورتل أن قطعه بقوله :

— هل تصغو ياسيد بدرو ؟ . إنى قمت بخدعة عند الأزتيك .

فقال بدرو وهو يطوق كاتانا بساعده :

— خدعة ؟ . ماذا تعنى ؟ .

— اسمع ... إنى قابلت الامبراطور خليفة مونتزوما قبيل المعركة الأخيرة وقلت له ما يأتى بالحرف الواحد :

« إنى أمددتكم برجال كثيرين من بنى قومى لمساعدتكم فى حربكم ضد البيض ولا أريد فى مقابل ذلك سوى تسليمى دى فارجاس القائد الاسبانى وامرأته وصديقه الضخم وديجو دى سيلفا ، فى حالة وقوعهم أسرى . . . إن كورتل أيها الامبراطور

لا يسألك أكثر من هذا ! .. إنه متعطش إلى دمائهم ! .. وبيده هذه سوف يتوزع قلوبهم ، وبيده سوف يشعل النار فى أجسادهم مرضاة للآلهة ! . . » . . فاستجاب الامبراطور لرجائى وأصدر الأوامر اللازمة . . . وقد جعلت أبحث عنكم أثناء القتال الدائر ، كما جعلت أبحث عن دى سيلفا . . ولما وجدتكم تركته وتحولت اليكم لانقاذ حياتكم . . .

فقال بدرو متأثراً :

— كيف أشكرك أيها الصديق ! .

فهز كورتل رأسه قائلا :

— لا تشكر .. إنى أكره الاسبان .. لكنى أحب صديقى ومنقذى . . والآن .. كفى كلاما .. ولنسرع بالسير قبل أن يفطن أهل كوبوا كان إلى الخدعة ..

فقال بدرو :

— وفى أى اتجاه نسير ؟ ..

فأجاب كورتل وهو يشير إلى ناحية الغرب :

— إلى حيث تغرب الشمس . . وطريقنا شاقة طويلة .. ثلاثة أيام سيراً ..

— لكن إذا استطعت يا كورتل أن تذهب بنا إلى هرنان كورتيز ، إلى مالينش كان جزاؤك عظيما . .

فقال كورتل وقد توهجت عيناه :

— جزاء منه ؟! إن ما لينش ( كورتيز ) قد مات ... وهلك معه جميع الأسبان .

— مات ؟ ! . . .

فاهت كاتانا وصاحبها بهذه الكلمة معا ...

فقال كورتل :

— نعم مات ... قتله الأزتيك فى أتومبا ...

كان الما على روعته غير مستجد فى هذه الظروف ولذلك وقف الأسبان الثلاثة مطرقين حزنا ...

ومهما يكن فلم يكن بد من اتباع مشورة كورتل ، وكذلك استأنفوا السير فى اتجاه



الغرب بعد أن حمل أتباع الزعيم الهندى كاتانا فى محفة صنعوها من دروعهم ...

لقد نجا أصحابنا الثلاثة من الموت ، لكنهم أضحوا يهيمون على وجوههم فى الحياة إلى غير هدف معين ولا وجهة مرسومة بعد أن ذهبت بددا ثمار حملتهم ، وضاعت أمبراطوريتهم الجديدة من أيديهم ، وهلك رفاقهم ، وأخذت عليهم كافة المسالك إلا هذا الأقليم المهجور الذى فيه يضربون مدحورين قانطين ...

## القسم الثانى

## الفصل الأول

بعد ثلاثة أيام من السير الشاق المضنى فى مرتفعات تكسوها الغابات ووديان تتخللها الجداول ومسالك موحشة لم تطأها قدم إنسان أبيض على مدى الأجيال ، أشرف الموكب على الوادى الذى يقطنه شعب زابوتيك وتنتشر بين أرجائه مدنه وقراه ، وقال الزعيم الهندى كورتل لضيوفه الأسبان الثلاثة إنه يرحب بهم فى أرضه بلد السلام والهدوء ، وإنهم غدوا بنجوة من عدوان الأزتيك ... ثم قادهم إلى قصره المؤلف من عدة أبنية متجاورة لا تتجاوز طابقاً واحداً وأفرد لهم داراً لها حديقتها الخاصة ضيوفا مكرمين ...

وأقام بدرو وكاتانا وجارسيا شهوراً ينعمون بالحياة فى هذا الأقليم الساكن الوادع وهم يلقون من كورتل كل رعاية ومودة ، حتى كان شهر ديسمبر إذ جد حادث ما لبث أن كدر صفو هذا الهدوء ...

لقد وفد على بلاد الزابوتيك هذه رسل من قبل الأزتيك ، واضطر الأسبان الثلاثة إلى الاحتجاب حتى يعود أعداؤهم من حيث جاءوا نزولا على رغبة كورتل الذى استصوب هذا الاجراء حتى لا يعلم الأزتيك أن دى فارجاس وأصحابه على قيد الحياة وأنهم سلبوا ضحاياهم خداعا وتدليساً ، وما ذلك إلا لأن الزابوتيك يدينون بنوع من الولاء لامبراطورية الأزتيك الكسيكية ولن يجنوا شيئا من إغضابهم ...

على أنه لم يكد يرتحل رسل الأزتيك حتى دعى بدرو على عجل للقاء كورتل ، فلما رأى علائم الكدر والاضطراب بادية على وجهه قال له :

— خيراً ؟.. ماذا جرى ؟ ..

فأجاب كوتل وقد لاحت على وجهه نظرة مبهمة غريبة :

— نحن أيها السيد شعب صغير لا يميل إلى الحرب والأزتيك أمة كبيرة ذات شوكة وسلطان ... وقد أخذنا على عاتقنا حمايتك وحماية صديقيك ...

فأومأ بدرو قائلا :

— لا ريب في هذا ... ونحن مدينون لكم بحياتنا ...

— لكن الأزتيك قد علموا بوجودكم هنا ، وهم يطلبون تسليمكم إليهم لتقديمكم قرباناً للآلهة ، وإلا هاجمونا وغزوا أرضنا وأحرقوا بلداننا وأسروا فتياتنا وجعلوهم قرباناً وفدية ...

فقال دى فارجاس :

— أحقاً ؟.. والنتيجة ؟..

فأجاب كوتيل وقد ضاقت عيناه :

— إنى رفضت ... فعادوا غاضبين .. وهذا نذير بالحرب ...

فقال بدرو وقد وثب فؤاده طرباً :

— أصغ إلى يا كوتل ... إذا لم أستطع أن أسدد المسالك الجبلية المؤدية إلى هنا بعونة رجالكم ، وإذا لم ألق بجثث هؤلاء الكلاب طعاما للوحوش والكواسر ، فلا كنت جنديا من المحاربين !. أقسم بشرفى أنى سوف أقطع أذناب الأزتيك وأردهم إلى بلادهم ينبحون .

— هل تدرب رجالى على أساليب الحرب عند الأسبان ؟

فأجاب بدرو بعد تردد :

— إنى سأبذل كل جهد بمساعدة جارسيا .. وسيكون رجالك فى التدريب والسلاح أفضل من الأزتيك على الأقل ..

— وهل تحصن الممرات الجبلية ؟

— إلى درجة ما .. فلا بد من استدراج الأزتيك إلى الداخل وإبقائهم فى الشرك

فقال كوتل باسماً :

— بالهارتكم معشر البيض فى الحرب والقتال ! .. أنتم تعيشون لها وبها !



إنى أرى السعادة فى عينيك مرتسمة أيها السيد لذكر الحرب !

وفجأة تذكر بدرو مونتزوما وأساليبه فى المواربة وحدثته النفس بأن كوتل يضمر فى دخيلته غير مايظهر .. وإلا فلماذا لم يغضب كوتل ويشتد غضبه على الأزتيك ، وكيف لم يعرب عن سروره بالفرصة المتاحة أمامه لقهرهم ؟ إن تعقيبه كان منصبا على تعطش البيض لسفك الدماء وحبهم للقتال .. وهو يرى ولاريب إلى حد بدرو بهذه الصفات كذلك ..

ومهما يكن فقد أردف كوتل :

— إن الأزتيك يعدون أنفسهم محاربين .. لكنهم أطفال بالنسبة لكم ..

فقال بدرو بحماء :

— إننا نبذل جهدنا .. متى تظنهم يبدأون الهجوم ؟

فهز كوتل كتفيه قائلا فى لهجة أقرب إلى قلة الاكتراث :

— من يدرى ؟ ربما فعلوا ذلك قريبا .. وربما بعد ثلاثة أو أربعة شهور

* * *

وانهمك بدرو وجارسيا على الأثر فى شئون الدفاع الحربى وظفر من كوتل بكل معاونة فى هذا المقام ..

ودرب المحاربون وفقاً لأساليب الجيوش الأسبانية ، وحلت الاسلحة الحديثة محل أسلحتهم البدائية ، وحصنت الممرات الجبلية ورسمت خطط الدفاع والهجوم ..

ورغم ذلك لم يحدث شىء مما كان منتظراً .. وتعاقبت الاسابيع والشهور دون أن يقع الهجوم المرتقب من ناحية التهال .. وفى ذلك قال بدرو لصاحبه جارسيا :

— هذا والله شىء عجيب ، المفروض أننا نتخذ هذه الاستعدادات ضد الازتيك الكلاب ، ومع ذلك فان كوتل لايذكرهم قط فى حديثه ! إنى بدأت أرتاب فى الامر وأشك فى أن الازتيك قد توعدوا بشىء ما ...

وانقضى شهر فبراير ومن بعده مارس ، وباقتضائهما استوفى أصحابنا تسعة أشهر منذ الافلات من المكسيك .. على أنه لم يحل شهر ابريل حتى هبط من التهال ، لا الازتيك ، ولكن هنود لاجئون مذعورون يلتمسون الملاذ والحمى فى ربوع الزابوتيك .. وقد التقى بهم بدرو خارج البلدة وسمعهم يلغطون

بالكلام ويرددون اسم مالينش ، فالتفت إلى ضابط وطلى من الجيش الجديد كان قد أطلق عليه اسم مارتن ، وسأله عما يقول هؤلاء القادمون .. فأجاب مارتن :

— يقول إن مالينش يحرق ديارهم ..

— مالينش ! ماذا تعنى ؟ أى مالينش ؟ أهناك أسبان إلى الشمال ؟

ولما لزم الرجل الصمت لجأة وقد بدا أنه فاه بأكثر مما كان ينوى ، قبض بدرو على عنقه قائلا :

— هلا تكلمت ؟ حرك لسانك قبل أن أقطعه .. أهناك أسبان إلى الشمال ؟

وخفف قبضته قليلا ، فأجاب الرجل بالإيجاب ، فقال بدرو :

— مالينش يعنى هرنان كورتيز ؟

— نعم ياسيدى ...

— ومتى كنت تعلم بهذا ؟

فأبدى الرجل وهو يكاد يختنق إشارة فهم بدرو منها أنه كان يعلم منذ حين . . فتخلى عنه والتفت إلى جارسيا قائلا :

— القائد العام فى الشمال ؟ هذا مستحيل ! لكننا سنعرف الحقيقة .. إن كورتيز يخفى عنا شيئاً !.. هيا بنا !

وقفز من فورها إلى قصر كوتل . . ودخل عليه بدرو دون استئذان وبادره فى برود :

— سمعت أن هرنان كورتيز على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشمال .. فهل هذا صحيح ؟

فأجاب كوتل عابسا :

— نعم . .

— يا إله السموات ..! هل تعمدت أن تستخفنا ؟ لقد قلت إن زملاءنا تخلوا فى ( أتومبا ) .. وقد وعدت أن تمكننا من الوصول إلى أية حملة أسبانية تصل إلى أسبانيا الجديدة .. فما هو تفسير هذه التطورات ؟

فقال كوتل وقد شحب بأنفه :

— إنك تتكلم بحماقة أيها السيد .. تذكر أنى صاحب الأمر هنا ..!



فقال بدرو وقد وضع يده على مقبض سيفه :

— بل سأفعل أكثر من الكلام أيها الصديق الظريف .. إنى أسألك مرة ثانية ، ما هو تفسير هذا ؟

فقال كوتل بعد أن صرف حاجبه :

— اسمع يا سيد بدرو . . وأنت يا سيد جارسيا . . إنى حين قلت إن الأسبان هلكوا فى أتومبا كنت أعتقد هذا ، وقد ظل ذلك اعتقادى زمناً طويلا ..

وفى الحق ، كما قال كوتل ، من كان يظن أن الثلاث القلائل من رجال الحملة الأسبانية الذين استطاعوا النجاة بحياتهم فى تلك الليلة الرهيبة مع فلول عزقة من بعض حلفائهم الهنود ، قد تمكنوا من الافلات إلى إقليم ( تلاسكالا ) رغم وقوف أربعين ألفاً من محاربى الأزتيك ينتظرونهم فى سهل أتومبا ؟

ومهما يكن فقد استطرد كوتل قائلا :

— وبعد انقضاء وقت طويل جاء الأزتيك إلى هنا كما تعلم .. وقد أبلغونا ملحدث ، فقالوا إن ( مالينش ) أثار القبائل الشرقية ضدهم ، وإنه اجتاز الجبال مرة ثانية إلى المكسيك ، وإنه جاء هذه المرة ومعه رجال كثيرون من البيض ومن الدافع والخيل جاءت جميعا من وراء البحر الأعظم ..وقد طلب منى رسل الأزتيك المساعدة فى حربهم ضد الأسبان . . وعند ذلك ، ولأول مرة ، لجأت إلى الكذب عليكم أيها السادة . .

وصمت برهة ، ثم استطرد يقول :

— إن شعبى يجىء عندى فى المرتبة الأولى .. ولا بد لى من الدفاع عنه ضد مالينش الذى يدمر كل شىء . . وهكذا حملتك يا سيد بدرو أنت والسيد جارسيا على تدريب رجالى .. ومن هنا كان الكذب ..

فلم يتمالك بدرو أن انفجر قائلا :

— يا إلهى ..! إذن فقد جعلتنا نأخذ لك الأهبة ضد أصدقائنا ومواطنينا ووضعتنا بهذا فى موضع الخونة المارقين ..! يا لها من ضربة بديعة يا كوتل ..!

فقال الزعيم الهندى :

— إنى أعمل لشعبى .. ولو كنت مكانى لفعلت ما فعلت ..

كان هذا الكلام منطقياً لا يحتمل نقاشاً .. وما لبث جارسيا أن قال :

— لكن ما هو الموقف الآن أيها الزعيم ؟ ونحن أسرى أم أحرار ..؟

— بل أحرار .. وسأقودكم إلى مالينش ، وأسير معكم مسافة يومين .. أتتركون السيدة كاتانا هنا ؟

فلم يتمالك بدرو أن انتفض حين ذكره هذا السؤال بالأمر الواقع .. فهو لا يستطيع العودة الى الجيتي الاسباني في الوقت الحاضر ، لأن كاتانا تنتظر مولودها بين يوم وآخر

## الفصل الثاني

لم ينقض أسبوعان حتى بزغ المولود الجديد إلى نور الوجود ، وكان طفلة بضة خضراء العينين نحاسية الشعر مثل أبيها ، وكان الفرح بها عظيما لا يعدله شيء في الوجود ، وأطلقت عليها كاتانا اسم ( تيتا ) ، وكانت معزة بها وكأنها أنفس كنز في الوجود ..

وفي خلال ذلك كانت الأنباء تتوالى تباعاً عن انتصارات كورتيز في التنهل وعن استرداده أغلب المدن المكسيكية فيما عدا عاصمتها الكبرى .. وكان حلفاؤه من قبائل تلاسكالا يرتكبون الذبائح ويوالون أعمال العنف ، وكان الاسبان بدورهم يحرقون ويدمرون ويأتون على ما يقع في أيديهم سلباً ونهباً .. وكذلك استحال وادي الدماء المخضرة الى واد من اللهب والردى والدمار ..

وإذا كان بدرو وجارسيا قد احتبطا بهذه الأنباء ، فان تعاقب الحوادث الغريبة في بلاد ( الزابوتيك ) هذه قد أنساهما أنباء انتصارات الاسبان الى حين .. فقد تفشى وباء الجدري بين الأهلين وافدا من الاقاليم الشمالية التي يحتلها الاسبان والتي كان فتكه فيها ذريعا .. ولولا أن بدرو وجارسيا قد بادرا بتلقين سكان زابوتيك أساليب مقاومة الوباء لأتى عليهم وأبادهم عن بكرة أبيهم .. وإنما تيسر بفضل هذه الجهود دفع عادية الوباء وشفاء أغلب المصابين به ..

وكان يوسع بدرو مفارقة الأقليم والنجاة بنفسه ومن معه ، ولكنه أبى أن يتخلى عن كوتل في هذه المحنة وفاء له ورحمة به وبشعبه . وإن كان ذلك لم يمنعه من إيفاد رسول إلى كورتيز يبلغه كتابة عن مكان وجوده ويصف له خيرات الأقليم ويعد بالانضمام اليه في وقت قريب ..



ثم حلت النازلة الكبرى التي مست بدرو وكاتانا في الصميم ..

فقد انتقلت عدوى الوباء إلى تيتا الصغيرة الغضة ولم تنفع أساليب الوقاية والعلاج في دفع الموت عنها ، وهكذا طواها الردى ولما تتفتح بعد زهرتها ، وخلف في قلبي أبويها حسرة مقيمة وألماً لاذعاً ..

وقال بدرو للأم المحزونة بعد دفن فلذة كبدها :

— اصبري ياكاتانا .. إن الله قد اختار صغيرتنا إلى جواره ، فهي بكل خير .. وما هذه النازلة التي ألمت بنا إلا لسبب تورطنا في الاثم والخطيئة .. وقد عاقبنا الخالق مرتين .. وكل الذنب في هذا ذنبي وحدي ، لاذنبك أنت .. فاني لم أتخذك زوجة طبقاً للشريعة الالهية ..

فنظرت اليه كاتانا أول الأمر مشفقة خائفة ، بيد أنها ما لبثت أن أومأت برأسها إيجابا قائلة :

— نعم .. لقد أثمنا كما قلت ..

واحتبس صوتها برهة ، على أنها غالبت نفسها وأردفت :

— طبعاً كان لابد من وضع حد لهذه العلاقة بيننا يوما من الأيام .. لقد كان هذا معروفاً بيننا مفهوما في نفسينا .. ومن الخير أن تنتهي علاقتنا منذ الآن ..

فردد كلمتها قائلا :

— تنتهي ؟ ! .. كلا ..

— وهل يجوز غير هذا ؟ ..

— ألا يوجد قس مع كورتيز ؟ .. يوسع الأب أوليدو أن يعقد زواجنا ..

فحملقت فيه قائلة :

— ما هذا الذي تقول ياسيدي ؟ ..

— قلت إن الأب أوليدو سيعقد زواجنا ..

فضمت عيناها برهة ، ثم انطقأ اللمعان وقالت :

— أنت مجنون أيها السيد ! .. إن الأشراف لايتزوجون فتيات المعسكرات .. إني أحبك ، فهل تظن أني أصبح شيء كهذا ؟ .. كيف نعود بعد ذلك إلى أسبانيا ؟ .

فقال وقد طوقها بساعديه :

— لن نعود .. سنبقى هنا .. هنا الدنيا الجديدة ياحبيبتي ، وهي ملكنا ! .. إن دنيا المستقبل أضخم من دنيا الماضي ! ..

— لا يمكن أن أنال من شرفك ..

فقال وهو يشد عليها :

— ستفعلين ما أقول .. فأنت ملكي ورهن يميني ..

فقالت وقد اغرورقت عيناها بالدمع :

— نعم ، علم الله أني أفعل ما تريد .. لكني لا أفعل ما يسيء اليك .. إن همنا شعورك الآن بسبب الحزن على نينيتا .. أما في المستقبل ، وحين تنسى ..

— إني أحبك وحدك ! .. وسأحبك على الدوام ! .. إني أسألك أن تقترني بي ! ..

فعاد الدمعان إلى عينيها ، واستطال هذه المرة ، على أنها قالت :

— صبراً أيها السيد .. سأعطيك جوابي عندما تنضم إلى الحملة ..

## الفصل الثالث

عاد الرسول الذي أوفده بدرو إلى كورتيز وهو يقص ما شهدته عيناه وامتلأت به ذاكرته ..

مدن محترقة .. محاربون كثيرون .. مدافع كبيرة .. سفن تمخر سطح البحيرة .. ضباط مدرعون فوق جيادهم .. ماليتش العظيم يستقبل الرسول وكأنه زعيم لما جاء به من أنباء الكاتبين بدرو فارجاس .. وقدم الرسول لبدرو رسالة ضخمة مختومة بالشمع محرر عنوانها بخط كورتيز المميز .. فأقبل عليها بدرو يفضها حين انضم اليه جارسيا وكاتانا فوق الشرفة وقد اجتذبتهما الحركة غير العادية التي اقترنت بعودة الرسول .. فبادرهما بدرو على الأثر :

— رسالة من القائد العام ! ..

فوقفا عن جانبيه وهو يبسط الرسالة .. وبينما هو كذلك إذ سقطت منها لفافة انحنى بدرو لكي يتناولها ، فما كاد يلمح عنوانها حتى هتف :

— تبارك الله .. رسالة من والدي .. رسالة بعد ثلاث سنوات انقطعت فيها الأخبار



وبسط الرسالة الداخلية المفتوحة وشرع يلتهم مضمونها بعينيه التهاما ..

والده بخير .. وأمه دونا ماريا بكل خير ..

لكن كل هذه البيانات السارة التي قرأها في السطور الأولى ، وليدع الرسالة إلى حين يطالعها في خلوة ، فكل ما كان يهمه أن يعلم أن والديه بخير ، وقد نالا العفو ورد اليهما الاعتبار ..

وشكر بدرو الرسول وصرفه ، ثم عاد الى رسالة كورتيز بين لهف صاحبيه المنتظرين ، حتى قال له جارسيا :

— عجل يا سيد .. أريد أن أعرف إن كان ما يزال ينوي إعدامي شنقاً .. أسمعه ما يقول ..

— إنه يبدأ بحمد الله على سلامتنا وبعدها من قبيل المجزات .. ثم إنه يأمرنا بالانضمام اليه على جناح السرعة لأن الحرب قد بلغت مرحلة حاسمة وهو في حاجة إلى كل أسياني .. وقد قال عنك حرفياً : « بلغ جوان جارسيا أن جريمته قد نسيت »

فقال جارسيا :

— هذه هي شيمة كورتيز وهذه مكارمه .. استمر يا بني بالله ..!

قضى بدرو في تلاوة الرسالة التي ذهبت تعدد في إيجاز أحداث العام المنصرم ، من تحطيم الامبراطورية المكسيكية شرقي الجبال وقمض الشعوب والقبائل عنها ، ومن العودة إلى بلاد المكسيك ذاتها ، ومن الزحف المظفر حول واديها ، ومن حصار مدينة المكسيك العاصمة .. وهكذا أضحت فخر الدائن للمكسيكية تواجه الأسبان وحدهم بعد هزيمة حلفائها أو انفضاضهم عنها وبعد أن حوصرت من كل جانب براً وبحراً ..

وتابع بدرو قراءة الرسالة قائلاً :

« لكن لا تحسب أن الحرب قد وصلت إلى نهايتها المظفرة ، فان العدو قوي البأس شديد المراس كثير العناد ، وإن حلفاءنا الهنود من قبائل تلاسكالا ومن اليهم متقلبون مذبذبون ، وهكذا تراني إما على أهبة النصر أو على شفا الانحدار .. ولذلك أهيب بك إلى الالحاق بنا على عجل لتكون ضابط الاتصال بين قواتنا المرابطة في مواقعها المختلفة تحت إمرتي وتحت قيادة الفارادو وساندوفال ..

« وإنى أبعث اليك مع هذا برسالة من والدك الجليل دون فرنسسكو وقد فتحتها طمعاً منى أنى لن أراك بعد الآن .. وهذه الرسالة تتضمن سطوراً من شخصية أخرى لا شك أنك ترحب بها .. ولا أعتقد أنه يسوؤك فى هذا المقام أن تعلم أن دييجو دى سيلفا قد انتقض علنا وترك حلفنا عائداً إلى كوبا »

لم يتمالك بدرو حين وقف على هذه البيانات بصدد عدوه الألد دى سيلفا أن اشتد به السخط والحنق ، فقد كان يعنى النفس بلقاء دى سيلفا وتصفية الحساب معه حتى كان يتلذذ سلفا بهذه الأمنية .. وقد خاطره جازعا هذا الشعور قائلا :

— ويل الشقى اللئيم .. لو أدركته يدى لأحرقته على نار بطيئة ..

وتابع بدرو قراءة الرسالة فيما يلى :

« ولقد كان من حسن السياسة أن ندعه يرتحل هو ومن معه .. فهم قوم قد ملوا الحرب وكانوا نواة التمرد والعصيان وجرثومة إفساد فى الحملة .. لكن هذه الحركة قد شقت علينا ، لأن دى سيلفا هو ابن عم عدونا أسقف ( بورغوص ) ورئيس مجلس جزر الهند ، وسوف يعبره ولا ريب أذناً صاغية ويستمع لأكاذيبه ومفترياته عند رجوع هذا الخائن الى أسبانيا »

وتردد بدرو برهة قبل تلاوة الأسطر التالية على مسمع من صاحبيه ، بيد أنه استطرد فى قراءته :

« وقد سرنى على الأقل ما ذكره والدك الجليل عن فسخ رابطة الزواج بين دى سيلفا وبين النبيلة لويزا دى كارفجال .. وكذلك ترى أن اليد الكريمة التى سطرت تلك الأسطر التى ستراها هى الآن حرة مطلقة من كل قيد .. فالى اللقاء »

شعر بدرو بعينى كاتانا ترقبانه ، فلم يقو على مواجهتهما .. على أنه فتح رسالة أبيه مرة أخرى ونظر فى أسفلها ، فما كاد يلمح السطرين المحررين تحت توقيع والده حتى تورد وجهه ، إذ قرأ فيهما ما يلى :

« أتذكر يا سيدى ، أم قد نسيت تلك التى دأبت على الدعاء لك بالخير ، وهى ما برحت متعلقة بالذكرى والانتظار ؟ »

وسأله بجفاء : كاتانا



— خيراً ..؟

— لا شىء ..

— لا شىء ؟ !

وفى الحق أن بدرو لم يستطع أن يغالب اشتداد حمرة وجهه حين ألفى ذلك الحلم الباهر الأسى الذى طالما تعلقت به خواطره يمثل الآن أمامه حقيقة واقعة . . . فها هى دى لويزا قد تخلصت من أسارها وأضحت شاخصة أمامه تهر وتخلب ..

واستأذن بدرو من صاحبيه وداف إلى غرفته لكى يقرأ رسالة أبيه بامعان ، وقد نهل كثيراً فى قراءة العبارات التالية التى أعرب فيها دون فرنسسكو دى فارجاس عن شعوره حيال لويزا :

« والحق أنه ليس فى قسطلة كلها من هى أكرم منها حسبا ونسبا ، وهى إلى ذلك تمتاز بالجمال الساحر والذكاء المشرف ... وهى بعد خلاصها من ذلك الشقى الاثيم الذى خدعها وخدع والدها ، وقد أضحت خير من تصلح زوجة لك ، خصوصا وإنكما شحابان .. وهكذا يتعين عليك ، حين تسمح لك خدمة للملك ، أن تبادر بالعودة الينا لكى تنتظم فى سلك خدمة أخرى أحلى وأعذب »

ومهما يكن فهذا شىء قد فات الآن وانقضى . . ولم يتمالك بدرو أن راح يتصور بين الحين والحين وهما يطالعان رسالته التى يخبرهما فيها أنه قد تزوج كاتانا بيرز فتاة العسكرات ... بيد أنه مع ذلك رفع رسالة لويزا إلى شفتيه وقبلها قبلة الوداع .

وفى الحق أن بدرو قد انهمك فى هذا إلى حد أنه لم يفطن إلى كاتانا وهى تدخل الغرفة ولعلها لم تشهد منه تلك البادرة العاطفية ، فانه حين رفع نظره عن الرسالة ألفاها تدير بين يديها قميصاً له فى حاجة إلى رتق قبيل الرحيل . . وقالت له :

— متى نرتحل للانضمام إلى الجيش ؟.

وبدا له أن نبرات صوتها تختلف عما عهد ، بيد أنه أجابها قائلا :

— غداً عند الفجر .. ومع السرعة قد نصل إلى معسكرات الجيش بعد يومين من مساء غد . . .

وفى هذه الليلة ، والجميع نيام ، تسللت كاتانا من غرفتها إلى غرفة بدرو المجاورة ، إ
باتا ينامان فى غرفتين منفصلتين بعد احترام عقد الزواج شرعيا ، وأخرجت الرسالة من
سترة بدرو وعادت أدراجها على أطراف أصابعها وعكفت فى ضوء شمعة أوقدتها على
تلمس سطور لويزا فى نهاية رسالة دون فرنسكو ، ولم يكن عسيراً أن تتبين السطور
لاختلاف الخط ، ولكنها عانت مشقة أى مشقة فى قراءة الكلمات بعد تلك الدموع
التى تلقتها على يدى بدرو ..

فلما استوعبت مضمون رسالة لويزا تسللت مرة أخرى إلى غرفة بدرو وردت
الرسالة إلى مكانها وانكفأت بعد ذلك عائدة إلى غرفتها ..

لم تجد غرابة فيما وقفت عليه .. فهو ما كانت تتوقعه وما راضت نفسها عليه منذ
البداية ...

ولو أن بدرو تزوجها لظل طول العمر يأسى على تلك النبيلة التى لم يقترن بها .

وكذلك ترى كاتانا ممددة على أرض الغرفة فوق الحصير تحدق خلال الظلمات بعينين
ملتهبتين عزت فيهما الدموع وقد تقبلت التسليم والامتثال ما ليس من قبوله بد
ولا مناص ..

## الفصل الرابع

ما كاد الفجر يبزغ حتى أتم بدرو وكاتانا وجارسيا استعدادهم للرحيل ... وقال
بدرو لصاحبيه وهم يتناولون ما تيسر من طعام الأقطار المؤلف من خبز القمح
ومخلل الكاكاو :

— إن كوتل قد زودنا بمائة من المحاربين لمرافقتنا فى الرحلة .. ويا لها من أبهة
حين تدخل المعسكرات الاسبانية فى هذا الموكب الفريد ! . فليس والله كل من يأسر
الهنود الحمر يرجع إلى أهله بمثل هذه الابهة ! .

وقال جارسيا :

— ولا تسل عن النهب الذى سنحمله معاً ... فقد قسم جارسيا محصول المعدن
الذهبية ومستخرج المناجم الذى جمع طيلة عام ، إلى أنصبة ثلاثة ، وناول بدرو أحد
الأكياس قائلا :



— إن هذا سيطرب كورتيز .. أتذكر حديثه لرسل الأزتيك ونحن فى بدء الحملة
حين قال إننا معشر أبناء قسطالة مصابون بمرض قلبى لا يشفيه سوى الذهب ؟ .

فقال بدرو وهو يزن الكيس بيده :

— أقدر أن وزنه يناهز أربعة آلاف جنيه . .

وريت على ظهر كاتانا قائلا :

— ستكونين من ذوى الغنى بعد زواجنا !.. من كان يظن أنك ستفوزين بمهر
قدره أربعة آلاف جنيه ذهبا ؟ ..

ولما ألفاها لا تجيب قال لها :

— ماذا جرى يا حبيبتى ؟..

فضربت الأرض بقدمها وتحولت عنه قائلة :

— لا شىء ... لا شىء سوى أنا كنا فى منتهى السعادة هنا !..

ولما تمت الاستعدادات بدأت الرحلة الشاقة للانضمام إلى جيش كورتيز فى
المكسيك ... وأصر كوتل على أن يرافق ضيوفه شطراً من الرحلة ، فكان له
ما أراد ...

وبعد مسيرة ثمانى ساعات حطت القافلة للراحة عند حدود أقليم زاوتيك ... وخرج
بدرو مع كوتل بعد الطعام والشراب يسيران الهوينا فى أرجاء الاقليم والشمس
مائلة للغيب ...

فقال الزعيم الهندى :

— إنى سأعود إلى موطنى غداً ... ولن يرى أحدنا الآخر فيما بعد ... أتذكر
يوم أسرتنا بين الجبال فى جاين الأسبانية حين أعطيتنى من مالك ؟..

الآن قد جاء دورى ...

فهز بدرو رأسه قائلا :

— إنك وفيت هذا الدين اليسير أضعافا مضاعفة ... فقال كوتل باسما وهو يضع يده
على منكب بدرو :

— ومع ذلك ، عندى هدية لك وحدك ... تعال معى الآن لكى أريك شيئا لا
يخطر على بال أحد ...

وسار به كوتل بين الجبال إلى واد عميق يشقه نهر عظيم الجريان كثير الشلالات والسقاط وتحف به الكهوف العميقة الغائرة في بطن الجبال حتى شعر بدرو برهبة لم يعهد مثلها في حياته وهو يطرق هذه الأرجاء التي لم يطأها أحد من البيض قبله ...

وقد اختار كوتل كهفا معينا من هذه الكهوف وولج إليه مع بدرو مستهيئاً بضوء مشعل أوري ناره ، فاذا هو نفق عظيم منحدر يفترشه معبد هرمي ، وسلط كوتل ضوء مشعله على تجويف في الصخور خلف المعبد ، فانعكس بريق مصفر وهاج هتف بدرو على أثره :

— ذهب !..

— وفي الحق أن بدرو لم يشهد مثل هذا الثراء من بعد كنز مونتزوما ... فقد كان التجويف مليئاً بالسبائك الذهبية والحلي المصنوعة ... وغمغم بدرو قائلا :

— ما هذا يا كوتل ؟..

فجاءه هذا الجواب الذي لم يجد له معنى :

— هذا يا سيد هو ثمرة الجنيين اللذين منحتهما لي في الكهف الجبلي في جاين

— جنيان ؟..

— إن الذهب كحبات القمح ... إزرع حبة واحدة أو حبتين تنبت لك سنابل !..

— إني لم أفهم بعد !..

— أليست هذه هي هدية الوداع ، منى إليك ياسيد بدرو ؟..

— فسر غرضك بالله !.. تعني أنك تمنحني هذا الذهب كله ؟..

— لك وحدك ... ولهذا السبب جئت بك إلى هنا بمفردك ...

— لكن كيف ؟.. ذهب من هذا ؟..

فتولى كوتل البيان وبدرو لا يكاد يستوعبه لفرط ما هو فيه من الذهول ... فاما الذهب فهو كنز قديم موغل في القدم ، جمعه الكهنة من أقدم العصور ، وانتقل سره إلى كوتل منحدراً إليه من أسلافه ، كابراً عن كابر ... وما حاجة الزايوتيك إلى هذا الذهب ولديهم منه المزيد في الناجم والأنهار ؟..



راح بدرو يحث بالكنز وهو يقدر قيمته .. إنه يناهز سبعمائة ألف جنيه ... وأن خمسه بموجب القانون من نصيب ملك أسبانيا ، وخمس آخر لكورتيز واللحمة منه نصيب مفروض ...

لقد رأى بدرو الكنز يتضاءل بعد هذا التقدير ، ولكن ما يبقى منه يجعله من كبار الأثرياء ويضعه في مصاف النبلاء ، ويفتح أمامه كل باب ... وإذا هو يقول من كل أعماق قلبه :

— ماذا أقول لك ؟.. وكيف أرد لك الجميل ؟..

فبسط كوتل يده قائلا :

— لا أريد منك شيئاً ... إنا لن نلتقي بعد الآن ، وأتمنى لك الخير والتوفيق ... إنك أحسنت إلي ، فجازيتك عن احسانك بأحسان ... إن ما تفعله بعضنا لبعض معشر بني الانسان لهو بمثابة البذرة ، إن كانت صالحة آتت أكلها طيبا ، وإن كانت فاسدة لم يخرج منها إلا كل نكد خبيث ... وذلك شأننا في الحياة أيها السيد ...

وعاد بدرو وكوتل إلى مكان القافلة ، فتلقاه جارسيا قائلا ( وكانا نا عن كثب منه يبدو عليها الارتياح بعد القلق ) :

— أين كنت يحق الشيطان ؟.. إنك غبت عنا ساعات ؟..

فأجاب بدرو :

— كنت أتجول مع كوتل ... وقد أرانى أحد الكهوف ...

ولم يرد بدرو على ذلك حرفا .. فان مالك ثروة قوامها سبعمائه ألف جنيه ذهبي ينبغي ن يمسك لسانه حتى عمن يحب ...

## الفصل الخامس

سلخ بدرو ورفاقه يومين كاملين في سير شاق حتى بلغوا معسكرات الاسبان وحلفائهم من الهنود في ضواحي مدينة التكسيك ..

وبينما كان هرنان كورتيز جالساً يتناول طعام العشاء في إحدى الغرف العلوية بقلعة رولوك التي انتزعها من الأزتيك إذ ترامى إلى سمعه هرج صادر من المعسكر ، ثم تزايدت

الأصوات دنواً من مكانه ، وإن هو إلا قليل حتى فتح الحاجب بابه ، وإذا بدرودى فارجاس منتصب أمامه بحيه التحية العسكرية ..

كان اللقاء حاراً مؤثراً .. وبعد استيفاء واجبات الحفاوة والمجاملة دعى بدرو إلى الجلوس إلى مائدة القائد العام ، وقال فى سياق الحديث بعد أن وقف على أنباء الحملة وتطورات القتال الزبر الدائر للاستيلاء على مدينة لكسيك :

— ليتنى كنت معكم .. فانه يبدو لى أن المهمة قد انتهت ..

فقال كورتيز :

— بل هناك الكثير مما لم يتم .. وستنال نصيبك من العمل .. ويلوح لى أننا سنضطر إلى دك المدينة حجراً حجراً قبل اضطرار الأزتيك للتسليم ..

وتحدث بدرو بدوره عن أقليم الزابوتيك وعن الثروة الذهبية التى جاء بها مع كاتانا وجارسيا ، فهتف كورتيز :

— اننا عشر ألف جنيه ذهباً ! .. هذا شىء عظيم ! .. ان هذا الأقليم غنى بثروته ولعلنا نجد الفرصة للاهتمام به فى المستقبل ..

ثم أردف كورتيز بعد أن أفرغ كأسه :

— لابد لنا من تدبير الموارد اللازمة لمقام صاحب الجلالة .. ولا أظن أنه سيتاح لنا أن نستردكثيراً من الكنز الذى فقدناه فى انسحابنا من المدينة ، فان الأزتيك سيحرصون على حرماننا من هذه الفرصة .. ثم انه لابد لنا أيضاً من مواجهة مطالب جنود الحملة وضباطها ، والوفاء بديوننا فى كوبا .. ألا ليتنى كنت أستطيع أن أضع يدى الآن حتى على خمسين ألف جنيه ؟ ..

ولو دار هذا الكلام منذ عامين لبادر بدرو مفاخراً بالكشف عن سر الكنز الذى أرشده اليه كوتل .. أما الآن فقد اجتمع له من الدهاء ما جعله ينحاز إلى الصمت حتى يدبر أمر الفوز بحصة الأسد من هذا الكنز .. ولذلك غير بدرو دفة الحديث بالسؤال عن الأحوال فى اسبانيا ، فقال كورتيز :

— لاجديد سوى أن صاحب الجلالة قد غدا أمبراطور روما المقدس ، وانه تلقى أخيراً الهدية التى بعثنا بها من فيلاريكا ، وانه استقبل رسولينا مونتيجو وبورتوكاريرو



وصمت كورتيز هنيهة ثم أردف :

— على أنه لامفر لنا من إيفاد سفراء آخرين يستطيعون أن يتبدوا أزورنا ضد أسقف بورغوس رئيس مجلس جزر الهند ، ذلك الرجل الرهيب فى أحضان عدونا فيلاسكيز حاكم كوبا ، وصديقك دييجو دى سيلفا ..

وأخذ كورتيز إلى التأمل هنيهة ، وما لبث أن ضرب يده على فخذه وقال باسماً :

— لقد اهتديت والله إلى الرأى الصائب .. إنك أنت يابنى خير سفير لنا .. فان والدك يتمتع بالعطف الملكى كما فهمت من رسالته .. وقريبك هو دوق سيدونيا .. وقد شاركتنا فى هذه الحملة منذ البداية ونلت رتبة كابتن ...

ووضع كورتيز يده على ركبة بدرو وقال فى حرارة :

— إنك لأنت الرجل المنشود ! .. فأنت شاب موفور النشاط بعيد الهمة سديد الرأى .. وإنى أحبك كما لو كنت ولدى !..

كان بدرو يعلم من أطوار القائد العام ما أدرك معه أنه يسبغ عليه هذا الاطراء لغاية يرمى اليها ، غير أنه مع ذلك سكر بخمر هذا المديح العاطر ، بينما أدنى كورتيز مقعده منه واستطرد يقول :

— اسمع يابنى .. فى سقطت هذه المدينة فى أيدينا ووضعت الحرب أوزارها فسوف تذهب إلى الأمبراطور ، سواء كان فى اسبانيا أو فى الأرض الواطئة .. ولن تدع أحداً مهما كان يعترض سبيلك ، لا أسقف بورغوس ولا غيره ..

— أأذهب إلى اسبانيا ؟ ..

— أجل .. تذهب مزوداً بالهدايا والرسائل التاسية ، معززاً بنفوذ أسرتك .. ويكاد يكون مستحيلا ألا توفق ، وأنت سليل تلك الأسرة وذلك صفتك فى الحملة ومعك الذهب تنثره والهدايا تقدمها ، فى الخلب على الأسقف وعلى مجلسه ، وبلوغ مسامع الأمبراطور لملء أذنيه من حديث اسبانيا الجديدة ..

استهوت بدرو هذه الصورة ... صورة سفارة لدى البلاط ! . وبدا له أنه بهذه الصفة يستطيع كذلك أن يستخلص لنفسه ، وبطريقة رسمية ، الجانب الأكبر من الكنز السرى ..

وقال كورتيز بلهجة رقيقة :

— وفى رأيى أنك تستطيع يابنى أن تعتمد أيضا على نفوذ أسرة كارفخال واهتمامها بك

فقال بدرو وقد ارتد فجأة إلى عالم الواقع :

— أخشى ألا يكون هذا يا صاحب السعادة .. لن تهتم بى أسرة كارفخال بعد أن تصبح كاتانا بيرز زوجتى .

فقال القائد العام باسماً :

— لعلك غير جاد فى هذا القول ...

— بل جاد كل الجد يا صاحب السعادة . .

— خل عنك هذا الكلام ! . هل سحرتك تلك الفتـــاة ، أم جاءك السحر من أقليم ( زابوتيك ) ؟ ..

فقال بدرو وقد تجاوز عن هذا التهكم :

— أنت لا تفهم الحقيقة ياسيدى .. إنى أحب كاتانا .. وقد مات طفلنا .. وأيقنت أن المشيئة الآلهيه قضت بأن يجمعنا زواج شرعى ..

فقال كورتيز وهو يغمز بحاجبه :

— أحقا ؟ . لا بأس .. سوف تشفى مما بك ! . كلنا مر بهذه التجارب !.

— بل إنى صادق فى عزمى يا صاحب السعادة . .

فلم يجب كورتيز برهة طويلة . . ثم قال وقد زال عنه التهكم :

— اصغ إلى أيها الرجل ! . أن تجـــل فرنسكو دى قرجاس لا يتزوج إحدى فتيات المعسكر . .

— إنها فتاة مخلصة أمينة ..

فعاد كورتيز إلى الابتسام قائلا :

— ولو ! . يدهشنى يابنى أن أضيع الوقت فى محاولات عقيمة فى مثل هذا الموضوع التافه ... لكنى سأعفيك من الارتطام بالصخور إن استطعت . . . إنى فى بحار الغرام ملاح مجرب ! . ولا يحدثك عن النساء مثل خبير .. لكن ثق أنه ليس فى الدنيا امرأة



تساوى مستقبل الانسان ... فدع عنـــك هذا الغرو الذى لا يكون إلا فى الحكايات الخرافية . . .

ونوقف كورتيز برهة كأنما يتخير كلماته ثم استرسل قائلا :

— وليس معنى هذا أنى أنتقص من شخص كاتانا . . فهى فتاة باسلة ذات شخصية ولا شك فى ولائها واخلاصها .. لكن ماذا وراء هذا ؟ . خذ مثلا تلك الفتاة الهندية مارينا صديقتى ... أليست مخلصة باسلة ؟ . هل أرضى بزواجها لهذا السبب ، حتى لو لم تكن لى زوجة شرعية فى كوبا ؟ . هذا ما لا أفعله . . وإنما أفعل ما اعتزمه متى جاء الوقت المناسب ، أى إننى أمهرها مهراً حسناً وأزوجها أحد الرفاق .. وعلام هذا ؟ . لأن الرجل الطموح خليق به أن يفعل فى دنياه ما هو أهم وأبلغ من مجرد الاستجابة إلى العواطف ... وما الزواج إلا رابطة يستعان بها على ادراك هذا الهدف ، لا تعويق بلوغه ! . .

وسلط كورتيز نظراته الثاقبة على بدرو ومضى يقول :

— تدبر شأنك يابنى . أنت من بيت كريم ، ولك مواهب طيبة ؟ وأمامك فرص باهرة . . . وإنى أمهد لك السبيل الذى يهيء لك عن طريق البلاط أو الجيش بلوغ المكانة التى خلقت لها ، وحين أتيح لك خـــدمة الجيش وأسبانيا الجديدة . . . فهل تتكل عن هـــذا الواجب ، فتخيب رجاء والديك ، وتقضى على كل شىء ، لمجرد أن تصبح زوجا لفتاة من بنات الشوارع ؟ .

احمر وجه بدرو . . وضاقت عيناه . . بيد أن كورتيز لم يترفق وراح يقول :

— وماذا تكون غير هذا ؟ . أليس الأجدر بى وأنا أحبك أن أسمى الأشياء بأسمائها حتى لا أجعـــل منك أضحوكة للناس ؟ . هل قلت لك شيئا لا يقوله والدك فى هذا المقام ؟ . .

لم ينكر عليه بدرو هذا القول ، بينما أردف كورتيز :

— هناك مسألة أخيرة .. إن دى سيلفا فى أسبانيا . . وأؤكد أنه سيتبع أسفف ( بورغوس ) إلى البلاط .. وستجد الفرصة لتسوية كل حسابك القديم معه .. لكننا لا نرضى أن يمثلنا زوج كاتانا بيرز لدى البلاط وأمام الامبراطور ! .. فما قولك الآن ؟ .

فقال بدرو وقد أطبق فكيه :

— إني قررت أن أحافظ على عهدي يا صاحب السعادة ..

## الفصل السادس

كان هرنان كورتيز من أولئك القواد الذين لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا تدبروها وأعدوا لها عدتها .. ولذلك لم يكد يستقر عزمه على أن مصير أسبانيا الجديدة مرتبط بحسن السفارة لدى البلاط الاسباني ، ولم يكد يقرر أن بدرو دي فارجاس هو خير من يليق لهذه المهمة ، حتى آلى ألا يدع مثل هذه المسألة الخطيرة مرهونة بنزوات بدرو وبدوات عواطفه ..

وهكذا نراه قد استدعى اليه كاتانا بعد نحو أسبوع وتلطف في استقبالها وشرع يتفرس من أحوالها وحديثها المواطن التي ينفذ منها الى صميم ما يريد ..

وفي الحق أن الفتاة غلبها الحياء أول الأمر وتملكتها الحيرة وهي تحاول تفسير هذه الدعوة الغريبة ، فظلت برهة تلتزم جانب التحفظ ، حتى اجترأت أخيراً فقالت :

— هل الكابتن دي فارجاس هنا يا صاحب السعادة ؟ إني لم أره منذ أسبوع ..

— كلا .. إنه في تاكوبا مع الكابتن الفارادو .

فتمتمت قائلة :

— إني خفت أن يكون أصابه مكروه ، وأن هذا سبب غيبته .

— كلا .. فهو في خير حال .. إنه يقوم بأعمال ضابط اتصال بين مختلف الفرق التي تحاصر المدينة .. ولهذه المناسبة إن الكابتن دي فارجاس ذو مستقبل باهر .

ولم يفته أن يرى تورد محياها ولمعان عينيها لدى سماع هـذا الاطراء .. فاستطرد يقول باسماً :

— أخبريني شيئاً واحداً يا كاتانا .. ما هو شعورك الحقيقي حيال بدرو دي فارجاس ..؟

— عجبا يا صاحب السعادة ..! إني أحبه ..

— تحبينه ..؟

فأومأت إيجابا وهي تحدق في يديها ، فضحك كورتيز قائلا :



— تكلمي يا كاتانا .. هل من شيء آخر غير هذا ؟

فتطلعت اليه مبهوتة ، فقال بغير لف ولا دوران :

— أفهم أنك تريدينه .. لكن تحبينه ؟! إن الحبيبا كاتانا هو البذل ، لا الأخذ .. هو تهيئة أسباب المجد والتوفيق للمحبوب ..

وتهد كورتيز ، ثم أردف :

— هذا شيء نادر ، لا شك في ذلك .. لكني أفهم أن هذا ليس شعورك حيال الكابتن دي فارجاس ..

فقالت كاتانا في تلعثم :

— لست أفهم يا صاحب السعادة ..

— كفى .. كفى .. أليس صحيحا أنك ستتزوجينه ؟

فقالت في صوت خافت :

— صحيح أنه طلب مني هذا الزواج ..

— دعينا من المراوغات .. لقد أخبرني أنه سوف يتزوجك .. فهل يتزوج منك ، وهو سليل الحسب والنسب . ذو المستقبل الباهر ، الذي اختارته سفيراً لنا لدى صاحب الجلالة الامبراطورية ؟! أيتجنى بمستقبله ، ويهدم صرح حياته ، وتقولين بعد ذلك أنك تحبينه ؟!

روعتها هيأته المتسلطة .. بيد أنها قابلت نظراته المتقدة دون تزايل ، وراحت تقول :

— أنت مخطىء يا صاحب السعادة .. ألا تراني أعرف من هو ، ومن أكون ؟ هل تظن أني أعتزم الزواج منه ؟ إني لأفضل الموت على الاساءة اليه .. لا لزوم لصاحب السعادة لكي تبين لي ما هو الحب وما هو الواجب ..

ثم استدركت قائلة وقد روعها اجتراؤها على هذه الصورة أمام القائد العام :

— أرجو العفو والمغفرة يا صاحب السعادة ..

لم يتمالك كورتيز أن شعر في نفسه بالحرج .. فقد كان كالذي يرفع قدمه ليرتقي

درجة فلا يجد الدرجة .. وهو قد عيأ كل دهائه للهجوم فاذا هو فى غير حاجة الى شىء من هذا على الاطلاق ..

وما لبث أن قال وقد تمالك :

— تريدين أن تقولى إنك لن تتزوجيه حتى لو ألح عليك فى هذا ؟

— إنى عقدت العزم على هذه النية منذ فترة يا صاحب السعادة .

— أحقا ..؟ هذا بديع إذن .. بديع جداً .. إنى أعتبر إليك يا كاتانا ... أنى لم أكن أتوقع أن أجدك بمثل هذا النبل وهذا الاحساس .. إن الانسان لايصادف مثل هذه الظاهرة دائما .. وأعتقد إذن أنك ستظلين صديقة الكابتن دى فارجاس الخاصة ..

وفى هذه الحالة لا يسعنى إلا أن أحسده ..

فهزت رأسها قائلة :

— إن السيد بدرو لا يريد هذا ياصاحب السعادة ... فهو يرى أن الله لا يرضى عن مثل هذه العلاقة بيننا ...

أحقا ؟ .. لكل انسان ضميره طبعا ...

ولما نهضت كاتانا للانصراف ، وقفا متواجهين ، وإذا كورتيز يقول بحرارة :

— وحق ضميرى إنك لعضو بارز فى حملتنا القديمة ... وإن جل اعتمادى عليك وعلى رفاقنا وبوسعك أن تعتمدى على بدورك ... وسأعمل على أن تكونوا أصحاب الأمر فى هـــذه الديار ، وأنت بصفة خاصة ... وسيكون لك أن تختارى نصيبك من الاراضى والضياع ... وستكونين مؤسسة لاحدى الأسر الكبيرة فى أسبانيا الجديدة هذه ... فلا تحزنى كثيراً على بدرو دى فارجاس ... إنه ينتمى بحكم نسبه ومستقبله إلى الدنيا القديمة ... أما أنت فلك الدنيا الجديدة ...

فحيته كاتانا دون أن يرى هذا الفراغ الرهيب الذى امتلأت به عيناها ...

— ثم تناول يدها ورفعها إلى شفتيه قائلا :

— إنى أجلك ياعزيزتى أكثر من سائر السيدات اللائى أتيح لى أن أعرفهن ... بل أكثر كثيراً ...



وانصرفت من لدنه وقد شعرت فى نفسها بخواء مظلم سحيق لم تعرفه امرأة فى حياتها ...

## الفصل السابع

ما كاد بدرو يعود من مهامه العسكرية فى تاكوبا حتى سعى من فوره لقاء كاتانا ، فقيل له إنها تتجول فى غابة الصنوبر القريبة ، فانتقل إلى حيث ألفاها مستندة إلى إحدى الأشجار وهى تسرح الطرف إلى البحيرة البعيدة ...

وما كادت تراه حتى هشت باسمه مرحبة وقد تهللت أساريرها ، وألقت ذراعيها حوله بحركة غريزية ، فقال لها :

— هل أوحشتك أيتها الحبيبة ؟.. إنى كنت كالكرة بين يدى القائد العام طيلة الايام العشرة الاخيرة ... لكنى سأعوض مافات ، وقد أعددت العدة لكل شىء ... فان الاب أولميدو سيعقد زواجنا هذه الليلة ...

وشد ما كانت دهشته حين رفعت ذراعيها عنه واستدارت دون جواب تنظر إلى ناحية البحيرة والمدينة المخربة ورامها ...

وقالت له :

— كلا ياسيدى ... أنا لا أريد الاقتران بك ...

فاشتد ذهول بدرو وهتف قائلا :

— رباه !.. وعلام بالله !..

لم تستطع الجواب برهة وهى تغالب ضعفها ... فما كرر سؤاله تحاملت على نفسها وراحت تقول :

— لا بأس ... المسألة كما قال جوان حارسيا ، الحب شىء ، والزواج شىء آخر .. هل فهمت ؟ ..

— لعنت إن فهمت شيئاً !.. إننا لم نكن متحابين فقط ، بل كنا رفيقين أيضا .. وهذا هو الزواج ...

فسارعت تقول :

— ثم هناك شىء آخر ... إننا لن نبقى فى معسكرات الجيش إلى الابد ... وإن

أردت زوجا اخترته من طبقتى ... لا أعلى ولا أقل !... ثم هناك مسألة الاولاد أيضا.. وعلى الانسان حين يتزوج أن يفكر فى هذه المسائل ...

— لكنك لم تفكرى فيها من قبل قط !..

— لم يكن هذا مهما عندما كنا عاشقين ...

فقال بدرو وقد استحال ذهوله إلى ألم وشعور بالاهانة :

— لكنى قلت لك ياكاتانا أنه لايمكن أن نستمر كما كنا ... وقد قلت هذا للأب أوليدو أيضا ، فوافقنى على رأيى ... هل لنا أن نجحد الشريعة الالهية ؟..

فراحت تقول وهى تجاهد لحبس الدموع فى مآقيها وإخفاء هذا العذاب الذى يمزقها

— كلا ياسيدى ... لا يمكن أن نستمر كما كنا ... ثم هناك مسألة أخرى ... فانى أنوى البقاء فى هذه البلاد ، وقد أصبحت أشعر كأنها بلدى وموطنى ... أما أنت فعليك أن تعود إلى أسبانيا ولو قلت غير هذا ، لان هناك مكانك ...

وفجأة تملكته الحيرة فقال مزمجراً وقد أطبق قبضته .

— أريد أن أعرف السر !.. تحدثنى نفسى بأن أضربك وأنتزع الحقيقة !... هل هناك عاشق آخر استغل غيابى و...

— كلا ...

— إن الشكوك تساورنى ... من هذا الزوج الذى تنوين الاقتران به ؟..

لم تفكر فى أحد .. على أنها قررت الانتحال ، فقالت :

— ربما كان جوان جارسيا .. وربما غيره .. لا أعرف تماما ..

— جوان جارسيا .. هل هو ...

— كلا .. إنه لم يقل كلة واحدة فى هذا الموضوع .. لكنه يتزوجنى إذا طلبت منه ذلك ..

يا لهذا العذاب الذى تنكوى بناره .. إنها لن تطيق الاستمرار فى هذا .. إنها تريد أن تدس رأسها فى صدره وتستسلم

أما هو فقد غلبت عليه الكبرياء .. انه وفى بعهده لها .. وكان على استعداد للتضحية



بكل شىء فى هذا السبيل .. لكنها رفضت يده وبذله.. فهل تريد أن يركع على ركبتيه أمامها .. حاشا وكلا ..

قال لها أخيراً :

— هذه اذن كلمتك النهائية ؟.. ألا تغيرين رأيك ؟

— كلا .. وقد قلت لك السبب ..

فرفع رأسه قائلا :

— لا بأس .. مادامت هذه رغبتك ..

وتبادلا نظرة طويلة ترجمت عن جماع الماضى الذى ربط بينهما ، وكانت أبلغ من كل كلام ..

— الوداع ياكاتانا !

— الوداع !

واستدار وأخذ يهبط التل دون أن ينظر خلفه .. فما غاب عن نظرها تهالكت على الأرض اعياء وضنى ..

ولم تنقض هذه الليلة حتى أبلغ بدرو القائد العام أنه مستعد لتمثيل الحملة فى أسبانيا متى حان الوقت الملائم ..

فقابل كورتيز هذا القرار بالرضا والاستحسان ..

* * *

ما كاد جوان جارسيا يعلم بما شاع فى الجيش عن انفصال بدرو وكاتانا حتى أبى أن يصدق هذا الكلام ، وقصد من فوره فى المساء بعد انتهاء أعمال الحرب النهارية إلى حيث دخل على بدرو فى غرفته بالقلعة وقال له بعد تبادل السلام وبعد مقدمات يسيرة :

— ماهذه القصة السخيفة التى سمعتها عنك وعن كاتانا ؟ أعنى عن انفصالكما ... إنى لاأصدقها طبعاً .. لكنى أردت أن أطمئن

فأجاب بدرو فى فتور غير معهود بين الصديقين :

— لم ننفصل .. فما زلنا صديقين ..

— ... صديقين !...

كانت هذه هي اللحظة التي يرتاع منها بدرو .. بيد أنه جابهها الآن في غير عناء بعد تلميح كاتانا عن احتمال زواجها بجارسيا .. والتفت قال في غير اكتراث :

— إني طلبت منها الزواج ، لكنها لم تقبل

فقال جارسيا في ارتياع وجزع :

— تعني .. تعني أنك تركت الأمر عند هذا الحد ؟

— مؤكد .. وهل كان يمكن أن أفعل غير هذا ؟

— كان بامكانك اقيادها من عنقها وإتمام الزواج .. فأنت تعلم أن هذه رغبتها .. ماهو السبب الذي ذكرته لك لتبرير عدم القبول ؟

— مجرد اعذار ...

ثم أردف في برود :

— قالت إنها ستتزوجك ..

— تتزوجني أنا ؟ أنا ؟

ودس جارسيا يديه في خاصرتيه وراح يقول :

— اسمع يابني !.. لنتكلم في صراحة .. لقد قلت أنه مجرد اعذار .. وهذا هو الواقع .. مجرد اعذار لأنها تحبك كل الحب حتى لاتريد أن تقف في طريقك .. وأنت في أعماق ضميرك تعلم أن هذه هي الحقيقة .. وهل قبلت معاذيرها !

فاحمر وجه بدرو وقال :

— إن أردت الصراحة ياجوان ، قلت لك ان هذا شيء لايعنيك وليس من شأنك

— ماذا جرى لك ؟

فلم الصمت برهة ثقيلا كان بدرو في خلاله يحاول التغلب على ضميره وقال في النهاية :

— لاشيء .. إنك تتكلم كما لو كنت قد أخافت وعدي لكاتانا .. إني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل .. سلها بنفسك

فلم يعبأ جارسيا بهذا الكلام لاعتقاده أنه من قبيل التمويه .. وقال لمساعده :



— أظن أيضا أنه ليس من شأني أن أعرف ماذا تنوي أن تفعل بعد أن تنتهي هذه المسألة :

— لابأس أن أخبرك بهذا .. إني ذاهب إلى أسبانيا لمسائل لدى البلاط تخص هذه الحفلة ...

فهتف جارسيا :

— آه ! هذا ماخطر لي ! السيدة لوريا ذي كارفجال الزواج الحافل ! . الحسب والنسب والالقاب .. لقد تغلبت عليك هذه الأمور في النهاية .. كنت أحسب أن الدنيا الجديدة وكاتانا قد غيرا نظرتك إلى هذه الأشياء

أدرك بدرو أنه من العبث أن يناقش مغريات المستقبل الزاهر مع شخص مثل جارسيا فهو قد ولد وعاش في صفوف العامة ! ذلك بينما استطرد جارسيا يقول :

— فكر جيداً في هذا أيها الصديق ! فكر فيه جيداً ! لاتبع جيانك بسراب خادع أن عندك هنا الجوهر الحقيقي لا العرض الزائف ! عندك الناس الذين يحبونك ، وأمامك الفرص العظيمة والمغامرات الباهرة !.. لاتنس أنا ما زلنا في البداية !.. أمامك أن تصبح من أكابر اسبانيا الجديدة وتقتني من الأراضي والضياع ما لاقبل لمثله في موطنك .. اتخذ من كاتانا زوجة لك ..

بدا لبدرو لحظة أن يمسك بيد صديقه قبولا وتسليما . والتاق أن يرى في عيني جارسيا ذلك الضياء القديم ، وأن يردف كاتانا حلقه على جواده ، وأن تزول هذه الحلقة الأليمة إلى غير رجعة ، وأن تعود الاخوة القديمة كأوثق ما كانت ، وأن تقلب صفحة جديدة ..

بيد أنه لم يكد ينعم النظر في موقفه ، ولم يكد يتذكر ما كان من رفض كاتانا ، حتى هز رأسه قائلا :

— كلا .. أصغ إلي ياجوان .. إن كنت تستهين بمهمة الدفاع عن مصالح هذه الحفلة لدى جلالة الملك وأمام تصميم أعدائنا المتحفزين ، فلست من رأيك .. إن القائد العام قد شرفني بثقته .. أنا رجل كورتيز الأمين هنا أو هناك .. وما سوف أفعله هناك سيكون له ثماره هنا .. وربما عدت اليكم يوما ما .. من يدري ؟ ..

— لقد كنا نتكلم عن كاتانا ..

شعر بدرو بغضب جارسيا يتملكه .. ما الذي يحمل جارسيا على الدفاع عن كاتانا فيه ؟ .. ولذلك قال :

— أراها ملأت مخك ياجوان ؟ .. لا بأس .. إنها حرة ..

فقال وهو يضع خوذته على رأسه :

— الواقع أن مخي ملآن بكما معاً .. والمصيبة أن هذا سيكون دائماً .. وليس من طبعي أن أبدد الصداقة كما أبدد قيصاً بالياً .. وقد تكون على حق في نظرتك إلى المجتمعات الراقية ، فلست بالخبير في هذه المسائل .. أتمنى لك التوفيق ..

— لك شكري الجزيل ياجوان .. لعنة الله علي إن أنا نسيت معروفك أو نسيتك

فلم يزد جارسيا عن أن حيا بإيماءة من رأسه وانصرف ..

## الفصل الثامن

لم تنقض أسابيع معدودة حتى سقطت مدينة المكسيك الزاهرة العظيمة في يد كورتيز بعد أن خربتها الحرائق وأتى عليها التدمير واستحالت إلى أكوام من الأطلال تتناثر بينها جثث القتلى ..

وكانت المرحلة التالية بعد هذا الفوز الباهر التي أحرزته الحملة في وادي المكسيك هي الانتشار في الأقاليم المجاورة للاستطلاع والاستكشاف ، ووقع الاختيار على هنمورام وجواتيمالا كأهداف مقبلة للغزو والفتح ..

على أن بدرو كان في شغل عن هذا بالاستعداد للعودة إلى أسبانيا .. ولما ألفى القائد العام في ضيق من قلة الذهب التي غنمته الحملة أخيراً لإرسال المقادير اللائقة منه إلى صاحب الجلالة ولتوزيع الأنصبة الضرورية بين أفراد الجيش ، انتهز بدرو هذه الفرصة وأفضى إلى كورتيز بسر الكنز الذي وهبه إياه كوتل .. وإذا كورتيز يقول له بلهجة الوعيد :

— ولم لم تخبرني بهذا من قبل ؟ ..

— إني كنت أنتظر الوقت المناسب لإصحاب السعادة ..

فقال كورتيز :



— يكاد يبدو لي أن أصادر هذا الذهب كله لصالح التاج والحملة عقابا لك على دهائك في إبلاغي الأمر ..

— لو فعلت ياصاحب السعادة لعلم الباقون بوجود الكنز ، في حين لا يعرف السر في الوقت الحالي سوانا ..

فدبر القائد العام برهة ثم قال :

— حسنا .. وما هي وجهة نظرك ؟ ..

وتلت ذلك مساومة وصفقة بين الاثنين .. فقد تم الاتفاق على إقصاء الحملة ، وقسمة الكنز بنسبة خمسين لصاحب الجلالة ، ومثلهما لبدرو باعتباره صاحب الفضل في الإرشاد عن الكنز ، والخمس الباقي لكورتيز .. وسجل هذا الاتفاق السري في عقد كتابي من صورتين ..

وكان بدرو هو الرابح في هذه الصفقة .. فإنه ما كان يستطيع نقل الكنز من داخلية الأقليم إلى الساحل ثم إلى أسبانيا إلا بمعاونة القائد العام .. ولا ريب أن ثلثمائة ألف من الجنيهات هي ثروة تضعه في مصاف كبار الأغنياء ..

وتم نقل الكنز إلى فيلاريكا سرا بمعونة عطارد الرابوتيك الثلاثة الذين أوفدهم كوتل لحراسة بدرو ، واستطاع هذا أن يقنعهم بالبقاء في صحبته ..

وانقضى بعض الوقت في إعداد السفينة التي يرتحل عليها بدرو إلى أسبانيا .. وبعد أن تمت كافة الاستعدادات وأقيمت وليمة غداء حافلة توديعا لبدرو ، اختلى به القائد العام في غرفته ، وراح يوصيه بالمحافظة على الذهب الذي يقدر بسبعمائة ألف من الجنيهات ، ويلقي عليه تعليماته الأخيرة قائلا :

— والآن إليك الشكلة التي ستواجهك .. ستصل إلى أسبانيا بمعونة الله سالماً إذا حالفك الحظ ولم يتربص لك أعداؤنا بالأذى .. فهل تظن أنهم سيرحبون بك كرسول عائد من غزو امبراطورية بأسرها ومعك الدليل المادي في صورة غنائم ذهبية مرفوعة إلى صاحب الجلالة ؟ لن يكون هذا في الحق ... وسيزج بك في السجن إذا لم تظهر من الدهاء والحكمة ما يظهره الرسولان السابقان (مونتيجو) و (بورتكاريرو) ، فقد بعت أنهما فقدا كل شيء إلا القميص الذي يستر هما ... وأنت تعلم أن أية سفينة تبحر

من هنا تصبح خاضعة لسلطان ( مجلس الجزائر الهندية ) الذى يث رجاله وشباكه فى كافة الموانى . . . ورئيس هذا المجلس هو ( جوان رودريجيز دى فونسكا ) ، أسقف بورغوس .. ونياقته بكره كافة النصابين فى خدمة أسبانيا كما كان دأبه طيلة الخمس والعشرين السنة الاخيرة . . .

وهنا تدخل بدرو قائلا :

— يقولون إن شقيقة الاسقف سوف تقترن بالسيد فيلا سكيز حاكم كوبا .

— نعم ، وهو مشيع بمشارب الحاكم وروحه . . . ونحن فى نظر الاسقف خونة متمردون ! . وما الذهب الذى أرسلناه إلا من حق الحاكم ، ومن حق صهره كذلك إذ هو يطمع أن يكون له من الغنيمة نصيب .. يضاف إلى هذا أن ( دييجو دى سيلفا ) قريب الاسقف يحشوه الاكاذيب والفريات علينا .. فتصور بعد هذا ماتكون النتيجة إذا قدر للذهب الرسل أن يقع فى يد فونسيكا ! . وإنى لا أرتاب فى أن الذهب سيصل أخيه فى النهاية إلى صاحب الجلالة ، وإن كان هذا لا يحدينا فى شىء .. أما عن مصيرك أنت ونصيبك من الذهب ، فلك أن تتصور أسوأ النتائج ..

ثم أردف كورتيز بعد صمت :

— وإذن فأين ترسو بما معك من الذهب حتى تكون بعيداً عن طائلة الاسقف وقريبه دى سيلفا ؟ . .

وأخرج كورتيز خنجره وراح يرسم به على الجوان خريطة السواحل الاسبانية ثم قال وهو يشير إلى نقطة معروفة باسم ( ريوتنتو ) على مقربة من ميناء ( بالوس ) :

— أن تجد أقفر من هذا المكان على امتداد السواحل الاسبانية .. فعليك إذا ما وصلت اليه بالسفينة أن ترسو عند هذه البقعة ليلا حيث تنزل صناديق الذهب وتتولى نقلها الى دير ( لارابيدا ) القريب .. وسيساعدك فى هذه المهمة هنود ( الزابوتيك ) الخمسة عشر الذين نقلت لى إسهم رغبوا فى مرافقتك الى أسبانيا ، وبوسعك أن تثق بهم أكثر مما تثق بمواطنيك الاسبان .. واليك هذه الرسالة لكى تسلمها إلى رئيس الدير وتطلب اليه المحافظة على الصناديق الخاصة بالامبراطور حتى يبعث جلالته من يطلبها بمقتضى كتاب شخصى منه .. وعليك أن تأخذ منه إيصالا بعدد الصناديق المسلمة اليه ..



أما عن الصناديق المحتوية على نصيبك الخاص فليس يعنينى أمرها ، وإن كنت أنصحك باخفائها بمساعدة الهنود فى مكان معلوم لك ، لأن نقلها عبر أسبانيا يحتاج إلى حرس مسلح لن يتيسر لك تدبيره .. ولو تركت نصيبك مع نصيب الامبراطور فقد يتعسر عليك المطالبة به فيما بعد .

فقال بدرو وقد أعجب بدقة الحاكم العام فى رسم الخطط بكلياتها وجزئياتها :

— وعن السفينة ؟

— سوف ترسو فى اليوم التالى فى ميناء ( بالوس ) وتفرغ حمولتها ، ولن يكون الذهب مدونا على كشوف الشحن .

— وهل أصدرتم سعادتكم التعليمات اللازمة للربان ؟

— بل فعلت أكثر من هذا . فقد طلبت اليه أن يتلقى عنك كافة الأوامر بوصفك ربان العمل للسفينة . . لكن عليك أن تلزم الحذر معه ولا تخبره بشىء عن نقل الذهب إلى دير ( لارابيدا ) ، بل أوهمه أنه سيدفن فى رمال الكثبان الساحلية .. وهو فى الحق من أمهر الربابنة ، لكن رجال البحر من طراز خاص ، وليس بين الملاح والقرصان إلا درجة واحدة ! .

— وبعد الدير ؟.

— هذا موكول لك .. لكنى أنصح لك أن تباعد ما استطعت عن كافة الموانى التى المجلس الجزائر عليها سلطان .. وسيكون لك خير نصير فى شخص قريبك دوق سيدونيا لكن عليك بالمبادرة بإيفاد رسول إلى صاحب الجلالة لابلاغه بمهمتك حتى لا تسبقك ألسنة السوء وتسمم الجو من حولك . . وسأزودك برسائل لا إلى الامبراطور وحده ولكن لأصدقائى كذلك ، وهكذا تجد من يشدون أزرك ويقوون ساعدك ... على أنه سيكون معك ما هو أقوى سلطانا من هذا كله ، وهو الذهب الذى ينطق بألسنة اللاتكة ويفتح كافة الأبواب الموصدة . . . فافعل إذن ما شئت ، وكل ما نريد هو أن توفق إلى كسب قضيتنا لدى صاحب الجلالة الملك الامبراطور ! . وهكذا ترى أن مستقبل الحملة كله بين يديك !..

ثم نهض القائد العام وأردف فى جد كل الجد :

— إننا نريد أن يعترف الامبراطور بهذه الفتوح التي حققناها ، وأن يصدر أمره بتعييني نائبا عنه في هذه البقاع ، لا ( فيلا سكيز ) ولا غيره .. فهل لي أن أعتمد عليك يا كابتن دي فارجاس ؟.

فقال بدرو في تأثر بالغ وهو يرفع سيفه إلى شفتيه :

— كل الاعتماد يا صاحب السعادة . . . وإني أعاهدكم على هذا حتى النفس الأخير من حياتي ! . .

●●●

مضى بدرو في مساء هذا اليوم إلى حيث تقيم كاتانا و ( جارسيا ) لتوديعهما قبل الرحيل ، فأنبأه بتهيأ بنبأ ذهابهما بالأمس في عداد إحدى كتائب الجيش إلى المقاطعة الجنوبية الشرقية . .

وانقض هذا النبأ على بدرو انقضاض الصاعقة ، فعاد إلى غرفته وجلس إلى الخوان يفكر مهموما محسورا .

وبينما هو رازح تحت هذا الضيق إذ أخرج من حرملته تلك الرسائل التي أخذها من كورتيز وراح يجيل النظر في عناوينها التماسا لما يسري به عن نفسه . . فهذا كتاب ( لصاحب الجلالة الامبراطور شارل بنعمة الله ) . . . وهذا كتاب برسم ( دوق دي بجار ) . . . وأما هذا فمنون إلى ( الكونت دي أجويلار ) . . . وأما هذا فموجه إلى ( الكابتن مارتن دي موراوي ) . .

إن أمامه المستقبل محدود الرحاب ، محقق لكافة الآمال . . . فعلام الأسى على الماضي والتفكير فيما فات ؟. إنه عائد إلى اسبانيا واسع الثراء لكي يقترن بكريمة أحد النبلاء . وهو رسول إلى الامبراطور . . . فهل بعد ذلك من مزيد لمستزيد ؟.

ولكنه رغم هذا أمسى فاتر العزم مجردا من عوامل الحمية والاهتمام . .

وما لبث أن حانت منه التفاتة إلى قصاصة ورق مطوية فوق الخوان ، فتناولها وبسطها ، فقرأ فيها بجهد ما بي لرداءة خطها وكثرة أغلاطها :

« وداعا أيها السيد . . . لم أحتمل أن أودعك ، ولكني أراني ذاهبة مع جوان . . أتمنى لك السعادة على الدوام » .



هنالك شعر بدرو بانطباق حلقه . . . وانكفأ على ذراعيه فوق الخوان وهو مغمم النفس كمداً . . .

## القسم الأخير

### الفصل الأول

لعله لم يكن في أوربا كلها في شهر أغسطس عام ١٥٢٢ بقعة أكثر حركة وأوفر نشاطا من قصر ( سان بابلو ) في مدينة ( طليطلة ) الاسبانية . . ففي هذا القصر كانت الرسل تروح وتغدو في حركة دائبة ، والنبلاء والاشراف يتوافدون ولكل حاشيته وشعاره الخاص ، وملابس نبلاء الالمان والاراضي الواطئة تختلط بأزياء نبلاء الاسبان فتتألف من هذه وتلك مجموعة فذة فريدة ، وساحة القصر مكتظة حاشدة بالوافدين عليها من كل حدب وصوب ، وفصائل جنود الالمان الرتزقة تحرس كافة الداخل والأبواب . . . والسر في هذا النشاط كله راجع إلى أن شارل النمسوي ، الذي ظفر بلقب الامبراطور قد حل أخيراً بممتلكاته الاسبانية بعد غياب ثلاثة أعوام مزقت فيها الحروب الأهلية تلك البلاد ، وتكدست أمام الامبراطور شئون جمة ومسائل كثيرة متشابكة تستوجب منه الرعاية والاهتمام . . .

وفي الحق أن الامبراطور الشاب أقبل على هذه المسائل جميعا يعالجها بهمة وعزيمة . فقد جلس في مكتبه الخاص وأمامه مستشاره الايطالي ( جاتينارا ) الذي ذهب يعرض لأنظاره المسائل الواردة في جدول الأعمال اليومي ، وكان الحديث بينهما يدور بالفرنسية وهي لغة مولد الامبراطور . . . وراح المستشار الثاقب الذهن يقول :

— هنالك يا مولاي موضوع الثوار الذين اعتقلوا في الاضطرابات الأخيرة . . . وإليكم قائمة الأسماء . . .

فجعل الامبراطور يلقي نظرة عجلى على القائمة وقال بعد برهة :

— الرحمة ستكتفي بالغرامات دون العقوبات . . . إننا في حاجة إلى المال أكثر من حاجتنا إلى إهراق الدماء . . .

فأومأ المستشار جاتينارا ايجابا ، وقدم إلى الامبراطور لفاً مطر به تعليماته الموجزة وهو يقول :

— نعم ... قال ... نحن فى حاجة إليه للتسلح ضد أعدائنا الأتراك فى الشرق ، والقبارية فى الجنوب ، وأبناء عمومتنا الفرنسيين فى الشمال ... كيف حال موارد الخزينة ؟ ...

— لا بأس بها ... لكننا فى حاجة إلى موارد مضاعفة إذا أردتم جلالتكم الاضطلاع بأعباء الدفاع ضد هؤلاء الأعداء جميعا ... وكما أشرتم جلالتكم الآن لا ينبغى تجاهل أى مورد للإيراد مهما يكن مصدره

فقال الامبراطور وهو يرد الورقة الملغية بأوامره إلى جانبنار :

— والمسألة التالية ؟ ..

— هى مسألة متصلة بأملاك جلالتكم فيما وراء البحار ... وهى فى انتظار قراركم منذ زمن طويل ... ويرجو أسقف بورغوس ورئيس مجلس الهند أن تنظر هذه المسألة بالقنسوية النهائية ...

فعاد الامبراطور يذاكرته وراح يقول حين تذكر ما يريد :

— تعنى مطلب حاكم كوبا ، فيلا سكيز على ما أذكر ، الاعتراف بالولاية على الاراضى المستكشفة فى الغرب بواسطة حملة أوفدها الحاكم تحت قيادة ... هرنان كورتيز ؟ ... يبدو لى أن هذا مطلب معقول يا جانبنار ... ومع أن الرجل كورتيز قد أجاد الكتابة التى رفعها إلينا منذ سنتين وشفعها بهدية جزيلة من الذهب ، إلا أنه لا بد من احترام القانون وممثل التاج ...

وتوقف شارل برهة ثم أردف :

— لكنى فى الحق لا أعرف شيئاً عن الخلافات الخاصة بتلك المستعمرات ...

— إن أسقف بورغوس لم يلتمس التشرف بالمقابلة مع صديقه دييجو دى سيلفا القادم حديثاً من تلك البقاع ، إلا بقصد أن يبين لجلالتكم ملابسات هذه المسألة ...

فقال الامبراطور وقد لمعت عيناه :

— تعنى بقريبه الرجل الذى قد وقع أسيراً بين أيدى القراصنة قبل وصوله إلى ميناء قادس ونجا منهم بأعجوبة ؟.. نعم ... إنى تحدثت مع هذا البطل ... وقد زودنا بمعلومات قيمة عن العدو ...



— هو نفس الرجل يامولاى ...

فقال الامبراطور بعد تردد :

— ألا توجد مسألة أهم من موضوع هذا الخلاف فى المستعمرات ؟..

— لقد كنا نقول يامولاى أنه لا ينبغى تجاهل أى مورد للإيراد ... لكن إذا رأيتم جلالتكم ...

— أدخل الأسقف وقريبه إذن ... لا مفر أن أراهما الآن أو فيما بعد ...

ومثل الاثنان بين يدى الامبراطور ... فبسط شارل يده للأسقف الذى انحنى فوقها باحترام ، بينما ركع دى سيلفا وهو يلثمها ...

وأنشأ الامبراطور يتحدث بالأسبانية فى جهد وهو يهنئ غير خبير :

— لقد تدبرنا مع الأسف ذلك الخصام الناشب بين خدامنا ، أعنى بين فيلا سكيز حاكم كوبا ، وهرنان كورتيز قائد قواتنا فى الأراضى المستكشفة المعروفة ، بأسبانيا الجديدة ... ويوسعنا ياسيدى الأسقف وأنت موكل بشئون الجزائر الهندية أن تعرف مواطن الحق والباطل فى الموضوع وأن تشير علينا بما ينبغى ... فتكلم ...

فانبرى الأسقف يقول :

— إن جلالتكم تتحدثون عن هذا الرجل كورتيز وكأنه من رعايا التاج المخلصين وأنه ليسوؤنى يامولاى أن ترق الأنباء إلى مسامعكم محرفة مبتورة ، ولكن لا ريب أن الذنب فى هذا ذنبى ... والحق يامولاى أن العكس هو الصحيح ... وأن هرنان كورتيز خائن مارق شرير ، وعاق ضار لا خلاق له ، وكرس كل همه للمؤامرات والخديعة حتى يصبح حاكما متوجا فى الأراضى التى اغتصبها ظلما وعدوانا ...

فقال شارل وقد تبادل نظرة معنوية مع مستشاره لما رأى من حماسة الأسقف وشدة غضبه واتقعاله :

— طيما لديك البراهين الداحضة على هذا ياسيدى الأسقف ؟..

— لدى ألف برهان وبرهان ياصاحب الجلالة ...

وأنشأ فونسيكا يسرد براهينه ... فقال إن فيلا سكيز حاكم كوبا قد حمله نفاقه فى خدمة صاحب الجلالة إلى تجهيز حملة على نفقته الخاصة بقصد الاتجار والاستكشاف فى

الأقاليم الساحلية الكتشفة إلى الغرب ، وانه عين هرنان كورتيز قائداً عاماً للحملة ولكن لم يخوله سلطة ما للاستعمار ، وأن هرنان كورتيز قد ارتضى هـذه الشروط ، ولكنه لم يكد يهبط تلك الاقاليم الساحلية حتى ....

فقاطعه الأمبراطور قائلا وهو يغالب تأوهه :

— هذا معروف .. فانه أنشأ مستعمرة سماها فيلاريكا .. لا بأس .. أوافق على أنه خالف اتفاقه مع حاكم كوبا .. هذا شيء غير جائز في الواقع ..

— نعم يامولاى .. ثم ذهب يتجاسر في غير خجل ولا تورع باعـلان عزمه على رشوة جلالتكم — وبوقاحة هذا الاجتراء — لكي تتجاوزوا عن خيانته ، بل لكي تقروه عليها ...

فقال شارل :

— أهذا هنا حقاً ؟ .. لا بأس .. استمر ..

فاستطرد فونسيكا يقول أن كورتيز عمد بعد ذلك إلى احراق سفن الحملة لكي يحول بين أتباع فيلاسكيز الأوفياء وبين العودة إلى كوبا ، وانه باعدام فريق من هؤلاء وتعذيب آخرين قد اضطرهم جميعاً إلى التوغل في داخلية الاقليم .. وهناك تفرد كورتيز وضباطه بأفعال وحشية تواليها الفجائع وأعمال السلب والنهب مما يشين أسبانيا وينال من الدين .. ولما أوفد فيلاسكيز حملة أخرى تقدر بألف ومائتين من الرجال تحت قيادة بانفيلو دى نارفاز لتثبيت سلطان القانون ورد المتمردين الثائرين إلى جادة العقل والصواب ، وهم هرنان كورتيز وأعوانه نارفاز ليلا متوسلا بالغـدر والخيانة فقفأ إحدى عينيه وقتل كثيراً من رجاله واضطر الباقين إلى الانضمام اليه ...

فقال شارل متضجراً :

— لابد أن هذا الخلوق وحتى في صورة انسان .. استمر ..

ومضى الأسقف يلصق بهرنان كورتيز كافة الآثام والمثالب .. بيد انه لم يكد يصل إلى ذكر الكنز الملكي الذي يقدر بمئات الألوف من الجنيهات والذي اختفى ليلة هزيمة الحملة على أيدي الازتيك وإن كان المعتقد لدى الجميع أن كورتيز قد تصرف فيه لمصلحته حتى توهجت عينا الأمبراطور توهجاً شديداً وقال :



— مئات ألوف الجنيهات ؟ ..

— لا أقل من هذا التقدير يامولاى ..

— ها ! .. حسنا .. استمر ..

فتولى فونسيكا اختتام مرافعته قائلا :

— والآن يامولاى، بعد أن أضاع الأراضي والكنز ، ذهب يواصل قتالا لاجدوى منه ، معرضاً رجاله لموت أكيد محقق ، لخوفه من مواجهة العقوبة التي تنتظره بعد جرائمه .. وإني يامولاى أطلب إنصاف فيلاسكيز ومنحه السلطة المطلقة في أسبانيا الجديدة

فقال شارل :

— سيكون له هذا .. لئن صحت هذه القصة فانها لأسوأ ما سمعت ...

— تقولون إن صحت يامولاى ؟ ..

فتدخل المستشار جانيارا قائلا :

— أليس الدليل ياسيدى الاسقف ، إن شقيقكم سوف تقترن بفيلاسكيز حاكم كوبا ؟

فقال الاسقف وقد رماه بنظرة غاضبة :

— تعني اني ، أنا الذي لبثت طيلة ثلاثين عاما أشرف على شئون الهند حتى جعلت أمبراطوريتها من العدم ، واني أنا رجل الكنيسة .. أكذب وأدلس ، لأن شقيقي .. ياصاحب الجلالة ، اني ألتمس رد الاعتبار والانصاف ..

فابتسم الأمبراطور قائلا :

— صبراً ياسيدى الاسقف .. لانعرض هنا ولا مسبة .. وإنما هو سؤال عارض ألقاه حضرة المستشار ..

ثم وجه الأمبراطور نظراته إلى دى سيلفا الذي ركع برشاقة وقال له :

— وماذا عندك أيها السيد ؟ ..

فأجاب دى سيلفا في صوت متأوج :

— أما أنا يامولاى فقد شهدت جرائم هرنان كورتيز ورأيتها رأى العين .. بل ماذا أقول عن فظائعه التي تقشعر من هولها الأبدان ؟ .. أأقول أن هرنان كورتيز يشجع حلفاءه الهنود لالتهام اللحوم البشرية ؟ .. أأصف جلالتكم تلك المذابح المروعة

التى ذهب ضحيتها مئات من زعماء الازتيك على أيدى أعوانه القريبين بدرودى الفارادو وبدرو دى فارجاس ، تلك الذبائح التى لم يكن مبعثها سوى الجشع الخسيس لحيازة الذهب وقد راحوا يجمعونه من جثث ضحاياهم ولما تفارقها الروح ؟ ألا أسرد على مسامع جلالتكم أنباء تعذيبه للامبراطور مونتزوما العظيم وسلطته عليه من الحسف والهوان ؟ ألا أعدد لكم ما عاناه أسرى الحرب رجالا ونساء وأطفالا من عذاب الكى بالحديد المحمى والاسترقاق على أيدى ضباطه خلافا لأوامر جلالتكم بحظر هذه الافعال ؟ الحق يا مولاى أن ذكرى هذه الفظائع التى شهدتها لن تبرح خيالى ما عشت . . !

وتوقف دى سيلفا برهة تاركا للامبراطور وجهه أن يعبر عن الاستفظاع والاستشاع . .

فأما الامبراطور فقد لاحت عليه أمارات التفور . . بيد أن الستشار ( جاتينارا ) تدخل قائلا :

— ومع ذلك فان رسولى كورتيز ومونتيجو وبورتوكارريرو وهما الآن فى طليطلة ولهما نسبهما العروف وسمعتهما الطيبة ، لم يشيرا بشىء إلى هذه الفظائع !

فأومأ دى سيلفا قائلا :

— هو ذاك . . فانهما غادرا أسبانيا الجديدة قبل وقوع أغلب هذه الحوادث . . ثم إن هرنان كورتيز بارع فى إخفاء وحشيته تحت ستار من الحزم والتنظيم . . إن كورتيز يا سيدى الستشار هو شيطان بارع . . انظر مثلا إلى عدائه الحمى للكنيسة . . فقد كان بين أفراد حملتنا قسيس ورع صالح هو الأب إيناسيو دى لويولا من رؤساء محاكم التفتيش ، فسلط عليه كورتيز من يحاول قتله وهو شق يدعى جوان جارسيا ، ثم تركه كورتيز بغير عقاب رغم أنه كاد يفلح فى القضاء على القس الفاضل . . ولما لم تفلح محاولة كورتيز الأولى ، ترك الأب إيناسيو يقع فى أيدى الازتيك لقاء انسحاب الحملة من تكسيك . . وقد علمنا فيما بعد أن القس الشكور مات شهيداً على مذبح التضحية لآلهة المكسيك . . ولما علم كورتيز بهذا قابل النبأ بالابتسام . . !

فقال الامبراطور :

— تباً لهذا . . لكن سهلا . . يبدو لى أنى أتذكر اسم دى لويولا . . ! ألم يكن هو رئيس محكمة التفتيش الذى أمر بادانة النبيل الكريم دون فرنسكو دى فارجاس



فى تلك القضية التى أبدى التفور له قداسة البابا السابق اهتمامه الشخصى بها . . ؟ إنى أتذكر أيضا أن دوق سيدونيا . . نعم . . إيناسيو دى لويولا . . يسرنى أن المجمع المقدس قد استصوب أن يعلن براءة الدون فرنسكو ورد اليه اعتباره . .

لم يتمالك دى سيلفا أن عض على شفته . . واغتم لاثارة هذا الموضوع . . وتمنى فى دخيلته ألا تمتد ذاكرة الامبراطور لشخصه ودوره فى هذه القضية . . بيد أنه قد خاب ظنه . . فما لبث شارل أن استطرد يقول :

— وأنت . . إنى أتذكر رؤيتك . . لقد جاء اسمك فى تلك القضية . . ألم تكن أنت المبلغ عن دون فرنسكو النبيل الكريم ؟

وقال جاتينارا فى رفق :

— نعم . . وأذكر الآن أن هذه الصلة كانت من الأسباب التى أدت إلى فسخ زواجك بدونا لويزا دى كارفجال . . أليس هذا هو الواقع ؟

وأردف الامبراطور :

— لا بأس . . وقد تحدثت عن بدرو دى فارجاس كشخصية مقربة لدى كورتيز . . فهل يمت بصلة القرابة إلى دون فرنسكو ؟

كان دى سيلفا أقوى من أن تزعزعه هذه اللحظة العصيبة ، فقال قال :

— هو ابنه يا صاحب الجلالة . .

ثم هز كتفيه وراح يقول فى كآبة :

— نعم . . لقد كان أسوأ شىء فى حياتى أنى كنت المبلغ عن دون فرنسكو لدى المجمع المقدس . . صحيح أنى سمعته يقوه بأشنع الكفر وقدرت أن واجب الاخلاص للدين يقتضى أن أبلغ الحادث . . لكن ما دام المغفور له قداسة البابا السابق والمجمع المقدس قد قررا براءته ، فقد بدا بجلاء أنى كنت مخطئا . .

مولاى . . إنى لست نبيلا مثل الركيز دى كارفجال . . ولا أكن لأستطيع الدفاع عن نفسى فى روما بصدد فسخ الزواج . . وكل ما أستطيع ، صفق خادما وفيا للكنيسة ، أن أتفانى فى خدمتها وخدمتكم يا مولاى ، وأن ألمس الصفح عن زلتى ، تلك الزلة التى

وإن كشفت عن قصر نظرى كجندى يؤدى الواجب ، فانها لا تم بحال عن قصور فى عقيدتى أو شرف ..

كان الامبراطور شابا مشبعاً بروح العطف والتسامح ، وهو قد تأثر بما لمسه فى لهجة دى سيلفا من إخلاص وصدق ، ولذلك بسط اليه يده قائلا :

— قد صدقتك أيها السيد وإن الشجاعة التى أبديتها عند وقوعك فى أيدى القراصنة لهى دليل آخر لإقناعى .. فدع هذا الآن .. أعندك معلومات أخرى تضيفها فى شهادتك عن هذا الرجل كورتيز ؟

فقال دى سيلفا بعد تردد :

— أفضل أن يتولى أسقف بورغوس الكلام فى موضوع قد أعتبر فيه مغرضاً ، لأنه يمس بدرو دى فارجاس ..

فقال فونسيكا وهو يلوح بيده :

— هذا أحب شىء لدى .. إن هذا الشاب بدرو ، مهما يكن مقام والده ، هو شقى لئيم ، وهو خير تلميذ لأستاذه ..

فتمتم شارل قائلا :

— يؤسفنى أن أسمع هذا .. ماذا فعل ؟

— إنى سوف أسرد هذا الحادث كدليل نهائى على لؤم كورتيز ، لأن الشاب المأسوف عليه قد عمل بأوامر سيده .. وهذا الحادث يكاد يتصل بجلالتكم ..

— حسناً .. تكلم فى صميم الموضوع ..

فأنشأ فونسيكا يقول وكلما مضى فى الحديث زاد الامبراطور اهتماما وإصغاء :

— مولاى .. إن مستعمرة فيلا ريكا للزعومة قد أوفدت الكابتن دى فارجاس الزمرم إلى أسبانيا ومعه رشوة أخرى يقصد رفعها إلى جلالتكم ، وقد فهمت أنها تقدر بمئات ألوف الجنيهات ذهبا ، وكان قد نقلها فى سفينة أقلت فوق البحارة فريقا من الجنود الوطنيين .. ولما وصلت السفينة إلى قرب دير لارابيدا المجاور لميناء بالوس ، نزل بدرو المذكور إلى الشاطىء ومعه الكنز الذى دفنه فى الرمال غير بعيد عن الدير بقصد خداع جلالتكم وخداع المستعمرة الزعومة التى جاء يمثلها .. وهو ماقبل هذا إلا لمصلحته



الشخصية ومصلحة كورتيز التواطىء معه ولا ريب فى هذا العمل .. ومن حسن الحظ أن ربان السفينة الفارز وملاحيها قد كاشفوا ضباطنا بهذه الحقائق طمعاً فى الفوز بالمكافأة .. ولولا هذا لما انتهى إلى علمنا شىء مما حدث

فقال الامبراطور باهتمام :

— مهلا ياسيدى الأسقف ! إنى لا أتابع اسبانيتك فى سهولة .. قلت إن هذا الذهب يقدر بـ ...

— ... مئات ألوف الجنيهات يامولاى ..

— وعلام بنيت هذا التقدير ؟

— إنى أستأذن جلالتكم فى الشرح والبيان

— على مهلك إذن .. هذا شىء هام

— إنى استقيت هذه البيانات يامولاى من الفارز ربان السفينة وملاحيها الذين شهدوا بأن الصناديق التى حملوها كانت كثيرة العدد وافرة الثقل وأنها تحتوى ذهبا خالصا .. وقد لقن كورتيز نفسه الربان الفارز بأن يتواطأ مع دى فارجاس فى السرقة وذلك بمساعدته فى نقل الكنز إلى مكان قريب من الدير ، ثم طلب إلى الربان بعد ذلك أن يرسو بالسفينة فى بالوس وحيث أفرغ حمولته فى الميناء دون ماذكر للذهب ..

فقال الامبراطور معترضا :

— قد يكون هناك تفسيرا لهذا .. إذا كان الذهب مرسلا لنا شخصيا ، فربما أوفد دى فارجاس الينا رسولا .. بل ربما كان هو آتيا بشخصه .. متى نزل إلى اليابسة ؟ ..

— منذ أسبوعين ياصاحب الجلالة .. فهل جاء أى رسول ؟ وفضلا عن ذلك فهناك تطور أخطر من هذا فيه أبلغ الدلالة على جرمه بحالا يغتفر بعد ذلك إلى دليل ..

— أخطر من هذا ؟

فرفع ( دى سيلفا ) عينيه وراح يقول :

— قد لا تصدقون جلالتكم ما أقول ، ولكن لم يمض إلا قليل حتى عاد ( بدرو دى فارجاس ) إلى جهة ( لارابيدا ) دون استخفاف هذه المرة برافقه مائة من الرجال

للسلحين من أتباع دوق سيدونيا . . ولم يستطع ضباط الياه وبجلس المند أن يمنعوا شيئا وقد جاء الجميع رافعين شعار الدوق . . وهنـــاك ، وعلى مرأى من الكثيرين ، أخرج بدرو من الغابة المجاورة للدير نحو عشرة صناديق ثقيلة كانت مطمورة تحت الأرض ، وحملها فوق البغال ، وارتحل بها . ولما جازف أحد الضباط بمجاذبته واستجوبه عن هذه الصناديق ، تعطف دى فارجاس وقال إنها نصيبه الخاص ، وأنه ليس لجلالتكم شأن بها ! . .

فالتفت الامبراطور إلى مستشاره قائلا :

— هل الدوق من الخارجين علينا ؟ . . إنه وقف موقف الولاء فى الاضطرابات الأخيرة ، ومن أجل ذلك كافأناه بمنحه بعض الاقطاعيات ؟ .

فهز ( جاتينارا ) رأسه هزة الحياد . . بينما مضى شارل يقول ساخطا :

— أين هذا القرصان دى فارجاس ؟ . . ألم يقبض عليه أحد ؟ .

فهز دى سيلفا رأسه قائلا :

— من الصعب اعتقال شخص يرعاه نفوذ خامة الدوق . . ومن ذا الذى يصدر أمر الاعتقال ؟ . من ذا الذى يملك السلطة اللازمة ؟ . كلا يا مولاى . . إنه يصعر خده للناس ويتعالى جهاراً وعلانية . . ويقال إنه سافر إلى جاين حيث والده عمدة البلدة . . . وكان يسير فى موكب الفاتحين ، تتبعه كوكبة من الحرس المسلح ، وجمع من هنوده مزدانين بالريش ، بينما تشخص اليه أنظار أهل القرى مبهورة أينما حل وارتحل ! .

— وهل معه الذهب ؟ . .

— أغلب الظن يا مولاى . .

لم يكن من دأب شارل أن يغضب ، أما فى هذه المرة فقد وثب قائما وهو يقول :

— قلت من يملك السلطة لاعتقاله ؟ . يا سيد جاتينارا ! . اصدر أمراً امبراطوريا باعتقال هذا الرجل بتهمة الخيانة العظمى ! . ولترسل الكابتن ( كلاروس دى باز ) إلى جاين ومعه قوة كافية ! . . وإن خاطر الدوق أو العمدة أو القرصان بعصيان هذا الأمر ! . جيئونى به إلى هنا مباشرة ، فأنى سأخص قضيته شخصيا ! . أنا مشتاق لقابلة الشقى ؟ . هل يراهن أحد إنى لن أسترد ما سرقه قبل أن يفقد رأسه ؟ .



وفى الحق أن الغضب قد امتد بالامبراطور فلم يفطن إلى تلك النظرة التى ارتسمت على وجه دى سيلفا . . . أما جاتينارا فقد فطن اليها . . . بينما تدخل أسقف بورغوس قائلا :

— مولاى . . إنى أستأذن مرة أخرى فى موضوع فيلاسكيز حاكم كوبا . .

— لا لزوم للاستئذان . . أليس هو فى الوقت الحالى نائب الملك ؟ . ألست أنت المشرف على الجزائر الهندية ؟ لا لتأخذ فيلاسكيز أسباتيا الجديدة التى يستحقها ولاريب كل الاستحقاق ، بعد الذى فعله كورتيز القس ! . أصدر الأوامر فوراً .

— هل تهونها جلالتكم بتوقيعكم ؟

— متى شئت . .

فقال المستشار جاتينارا :

— إذا كانت لى أن أشير بشىء فانى أفضل الانتظار حتى يتم استجواب بدرو دى فارجاس . . ولن يستغرق هذا أيما قلائل . .

فقال شارل :

— وما السبب ؟ .

— هو مجرد احتياط يا مولاى . .

فقال الامبراطور بعد تردد :

— لا بأس . . كما تشاء . . لكن لا شك فى النتيجة . .

— أبداً . . .

ونظر المستشار إلى الاسقف الهنق دون أن يعقب بكلمة أخرى .

## الفصل الثانى

كان قصر الركيز دى كارجال يتلألأ بالأنوار هذه الليلة فى انتظار مقدم الضيوف الأماثل الذين تتألف منهم أسرة دى فارجاس . . ووقف الركيز فى غرفته يلقى نظرة أخيرة على هندامه وهو مستسلم لخواطره المتفرقة . . فى هذه الليلة ستعقد خطبة كريمته لورزا على بدرو دى فرجاس الذى أضحى الآن من أغنى أغنياء أسبانيا . . ألا يملك كما قال لهم ثلثمائة ألف جنيه ذهبا ؟ وهذه ثروة طائلة لا يملك ربعها أنبل النبلاء ! . أو لن يتم

الزواج ذاته بعد أن يعود بدرو من البلاط ظافراً ممجداً ؟. فكيف لا يغتبط الركيز بهذا ويسعد ويستسلم لأعذب الخواطر وأسنى الاحلام ؟ .

إن بدرو لم يصل إلى جاين من أشبيليه سوى هذا اليوم ، وقد استقبله فى أطراف البلدة والده والركيز نفسه وجماعة أخرى من أكابر القوم . . بيد أنه لم يجتمع بلوزا بعد . . ومن أجل هذا لم يدع أحد من الخارج إلى حفلة الخطوبة هذه الليلة ، وستقتصر الحفلة على آل الخطيبين ..

وكانت لوزا بدورها تتأهب لهذه المناسبة فى مخدعها وتأخذ أتم زينتها بمساعدة مربيتها أنطونيا حتى بدت فى النهاية صورة رائعة آخاذة للانوثة الفتية والجمال الساحر .

وما كاد موكب الشيوف يهل على القصر حتى وقف الركيز وفتاته فوق درجات الاستقبال العليا يرحبان بالشيوف بين صفين من الخدم فى ملابسهم الزاهية المطرزة .. ولكن هذه الحفاوة لم تترك فى نفس بدرو سوى صورة مبهمة للعالم جمعت بين أهابها أشتاتا من ذكريات الماضى وحقائق الحاضر ... فمنذ أربع سنوات جاء إلى هذا القصر فى طريداً يلتمس فى رحابه الحمى والملاذ فكان نصيبه الاقصاء والاعراض ... وكان بالأمس شريداً يعمل بمثل هذا الاستقبال على أنه أعز أمنية يتوج بها حياته ... وها هو ذا الآن يعود ظافراً موسراً قد اجتمع له من المجد ما فاق كافة الاحلام والتصورات !.. فهل تراه قد أدرك السعادة التى كان يحلم بها فى ماضيه ؟..

ولما وقع نظره على لوزا فى أوج بهائها وفتنتها ركع أمامها على إحدى ركبتيه ، ورفع يدها إلى شفتيه قائلا :

— هأنذا قد وفيت بعهدى لك ياسيدتى ...

ودلف الجميع إلى بهو الاستقبال بعد إستيفاء مراسم الحفاوة والترحاب بنعم قسيس الناحية ... وأديرت عليهم كؤوس النبيذ بين المجاملات الرقيقة والحديث الذى كان مداره مغامرات بدرو فى الأقاليم الغربية ....

ثم حلت اللحظة الموعودة ... فتناول بدرو يد لوزا الغضة الرقيقة قائلا :

— أنا بدرو سأغنك ياوزا لى زوجة ...

— وأنا لوزا سأغنك يابدرو زوجاً ...



وأشار بدرو إلى أحد أتباعه ، وتناول منه علبة فتحها وأخرج منها خاتماً ذهبياً ثقيلا ترصعه زمردة كبيرة .. ، فما كادت لوزا تراها حتى لمعت عيناها وقالت :

— ما أبدعها !.. ما أجملها !..

— هى كذلك ما دامت أعجبتك . . . إنها كانت ملك أحد أمراء الأزتيك ...

وجىء بكأس الخطوبة ... فشربت منها لوزا أولا وهى تنظر إلى بدرو ... ثم تناول هو الكأس من حيث وضعت شفتها وشرب بدوره ...

وبعد أن تبادلا قبلة وباركهما القسيس بالكنيسة ، ثم بذلك عقد الخطوبة ...

وانتقلوا إلى مائدة حوت مالذ وطاب من ألوان الطعام والشراب ، فافتتح الركيز الوليمة بخطاب تهنئة بليغ رد عليه دون فرنسكو شاكراً ، ولكن بدرو لم يخدع بما انطوى عليه خطاب صهره من آيات النفاق والرياء ...

وفى ختام الوليمة انسحب بدرو ولوزا إلى الحديقة فى صحبة القرية عن كثب ، وتركين الركيز وضيفيه يتبادلون الحديث عن الماضى وذكرياته التى لا تخبو أبدا فى نظر الشيوخ ...

وألفى بدرو الحديقة كما كان يتوقع ... أغصانا متشابكة ظليلة ... وضوء القمر ساطع باهر ... وشذى الأزاهير متضوع عبق ... وبلبل على أيكة يشدو ويصدح ...

أجل !... لقد نال بدرو كل ما كان يحلم به ويتمناه ... وما عليه إلا أن يستجمع الخيوط التى قطعها غياب الأعوام الأربعة الماضية ، ويستأنف غرامياته وفروسياته ويركع تحت قدمى أميرة أحلامه ، ويعرب عن مكنون مشاعره بذلك الأسلوب الرنان الخلاب !...

بيد أنه ألفى نفسه أعجز ما يكون عن هذا العمل ، وكأنما اصطدم فجأة بجدار سفيق صميك ... فقد شهد من الحياة كثيرا ، واختبر منها الشدائد ، وبلى حلوها ومرها ، فلم يعد ذلك الفتى اللاهى العابث الخالى البال ... وها هى ذى أميرة أحلامه من كثب منه ، وهو غير مستطيع رغم ذلك أن يجد الكلمات التى يوجهها إليها . . . لقد فعلت المقادير كل شىء إلا أن ترد إليه نظرات الشباب الماضية شاعره الحوالى ...

ولا ريب أن لوزا كانت تنتظر منه تلك المطارحات الغرامية المعهـــودة ، إذ همهمت قائلة :

— حسناً ياسيدى الفارس ... هأنت ذا قد وفيت بعهدك ... وكنت فى الحرب والحب وفيا ... وقد صحبتك صلواتى وردتك إلى سالماً غانما ...

فتحامل على نفسه بهذا الجواب :

— نعم ياسيدتى الجميلة ، وهأنذا قد عدت لأظفر بحبى ...

فقالت فى رقة :

— إننى لك ...

وكان ينبغى فى هذه اللحظة أن يركع أمامها ويتناول يدها وينفجر فى الافضاء عن جواه ... بيد أنه لم يزد عن قوله :

— وأنا فى الحق أسعد الناس ...

كانت تنتظر منه أكثر من هـذا ، بيد أنها اعتبرت سكوته من قبيل الانفعال ، وقالت فى خفة :

— ومنديلى الذى أهديتك ياسيدى ... أكنت ترفعه فى المعارك ؟ .. أما زلت محتفظا به ؟ ..

تذكر بدرو تلك الليلة الخالية فى الكسيك حين اشتدت نقمته على ( لوزا ) إذ علم بزواجها من دى ســيلفا وتمرغها بين أحضانه ، وما دار بينه وبين كاتانا من حديث على الأثر أعطاها فى خلاله منديل لوزا وقد نزع غرامها من قلبه . . ولم يلبث حين طافت به هذه الذكرى البعيدة أن تلاشت حديقة الركيز من مرآه ولم يعد يبصر سوى صورة كاتانا وهو يضمها إلى صدره فى ضرام من الحبة عنيفة أين منه هذه النزاة السطحية للتكلفة ؟ . .

وما لبثت هذه الصورة أن تلاشت من ذاكرته حقاً ولكن كاتانا دلفت إلى الحديقة واستقرت فيها استقراراً . .

وقالت له لوزا :

— إنك لاتجيب ياسيدى ..



فقال كذبا وتمويها :

— إنى أعترف بذنبى ياسيدتى . . فانا فقدنا كل شىء فى ليلة الانسحاب المشئومة إلا جلودنا . .

ولم تخيب لوزا ، فهى إنما أرادت بهذا الحديث أن تقطع حبل الصمت بينهما . . وعرجت به بعدذلك على أحاديث أسفاره ومغامراته ، فكان عندحسن ظنها ، ومازالت به تتلطف اليه وتطالعه برقتها وفتنتها حتى اشتد خفق فؤاده وقبلها ، فاحتواحتجت ، ثم بادلته القبلات . .

على أن عنصر الأحلام ما لبث أن خبا وتلاشى من وجدانه .. فانه لم يعد يرى فى لوزا ذلك الطيف الشعرى ، وإنما رأى فيها غانية لعوبا ذات تجربة واختبار . . نعم إنه سيصبح عما قريب زوجاً لها . . لكن ستبقى بينهما تلك الأعوام الأربعة الماضية كأعذب وأحب أعوام حياته ، وليس لها فيها من نصيب . .

وأفاق لنفسه فى النهاية ويده حول خصرها ، فقال فى غير أسف كثير :

— وا أسفاه ياسيدتى .. ها هى دونا أنطونيا قادمة .. إنى أسمع خطواتها . .

## الفصل الثالث

جلس بدرو ووالده فى غرفة مكتب دون فرنسسكو يسمرون بالحديث بعدعودتهم من قصر كارجال .. وكان طبيعيا أن يدور الحديث حول المأساة الحالكة العظيمة التى شهدتها هذه الليلة .. ولكن ما بدا من وجوم بدرو وسهومه جعل أبويه فى حيرة من أمره ، حتى قالت له دونا ماريا فى النهاية :

— عجبا لك يابدرو ! .. هل كنا فى خطوبة ، أم فى جنازة ؟.. مالى أراك صامتا متحفظا وقد حسبناك ستحلق فى السماء السابعة ؟ . .

فقال بدرو :

— وماذا أقول يا أماه ؟ . . أو يمكن للكلمات وصف لوزا ؟ . .

— بل تصفها النظرات على الأقل .. وكان يوسعك على الأقل أن تبدوسعيداً مغتبطا

— لكنى سعيد . . يا إلهى ! . . هل يراد أن أرقص من فرط الطرب ؟

فقالت أمه ولم تخدع بكلامه :

— بل أراك تخفي في نفسك شيئا يابني .. علم الله أنك أعز الناس عنـدنا وانما لانبتغي سوى سعادتك .. فهلا فتحت قلبك لنا كما كنت تفعل في الماضي ، أم أن قلبك قد تغير في الدنيا الجديدة ؟ ..

وانضم الأب إلى الأم يشد أزرها ويستحثه للمكاشفة بما يغصه ويفسد عليه سعادته تأثر بدرو بهذا الحنو ، ولانت نفسه ، بيد أنه راح يكابر ويقول أن ما به لايعدو أن يكون من آثار حياة الاغتراب والحروب ، وأنه لابلبث أن يألف حياة الدعة الحالية ويندمج فيها .. لكن أمه قاطعته قائلة :

— هناك شيء آخر يعز في نفسك .. إن عين الأم لاتخفى عنها خافية .. إنك ذهبت إلى قصر كارجال سعيداً مبتهجا ثم عدت منه مكتئبا ساهما .. فما السبب ؟ .. إن كانت هذه الزيجة لاتعجبك ..

— بل تعجبني يا أماه !.. ولو قلت غير هذا لكنت من البلهاء ..

— إن هذا لم يكن أسلوب حديثك عقب عودتك .. بل إن رسائلك من اشبيليه..

فقال بدرو وقد تحطمت مقاومته فجأة :

— كل ما هنالك اني تذكرت هذه الليلة شخصا معينا .. فقد أحببت في أسـبانيا الجديدة ، وسأظل على الدوام محبا .. ولا حيلة لي في هذا ..

فقالت الأم في فضول : ومن هي التي أحببتها ؟ ..

فقال بدرو وقد ندم على زلة لسانه :

— لو أني أخبرتك يا أماه لأثرت حزنك وألمك .. فعلام الكلام في هذا ؟..

بيد أنها لم تتخل عنه ، إذ قالت :

— لعلها من بنات العسكرات ..

— نعم ..

— يالها من مقارنة بديعة بالقياس إلى النبيلة لورزا .. لاشك أنها من بنات الهنود..

— كلا .. بل هي فتاة أسبانية .. وهي معروفة لكم .. فهي كاتانا بيرز ، فتاة خالة روزاريو .. فانها جاءت مع أخيها إلى الجزائر الهندية ، وتبعت حملتنا إلى أسبانيا الجديدة ..



ثم أردف بدرو بحرارة :

— أم لعلكم نسيتموها ؟ ..

فهتف دون فرنسسكو :

— كاتانا بيرز ! .. ولم لم تقل هذا من أول الأمر ؟ .. أتعنيني تا كرة الجميل ، أنسى من أنقذت حياتنا ؟ .. نعم .. هي والسيد جارسيا .. إنها فتاة باسلة .. ولولاها لما كان أحد منا هنا هذه الليلة ..

فقالت دونا ماريا وقد انحازت الى الفين :

— معذرة يا بني ، فاني لم أكن أعرف .. إني أحبها لطيبتها .. قل لنا المزيد عنها .

فقال بدرو وقد تأثر بكرم والديه :

— شكراً لكم .. لكن الكلام ليس بالكثير ..

لكنه كان واهما .. فانه لم يكد يمضي في القصـة حتى تدفقت الذكريات الحبيبة ووجد الصمت الثقيل طيلة العام الماضي منفذاً ومتنفسا .. فراح يتحدث عن الزحف إلى الكسيك وعن حيـاة العسكر ، وراح يسرد الأخطار التي استهدفوا لها وبعد الأفراح والأتراح .. وقال فيما قال :

— إن لنا ابنة مدفونة في بلاد كوتل .. ولو رأيتها يا أماه لما نسيتها طول العمر .. إنها ماتت بالجدري .. وكانت نكبة أصابتنا في الصميم ..

فاشتد تأثر الأبوين حتى انحدرت دمعة على وجنة الأم .. بينما أردف بدرو :

— إني أصبحت لا أرى كاتانا سوى راكعة بجوار قبر ابنتنا .. وهي لم تقبل أن تكون زوجتي .. فانها لم تفكر قط في ذاتها ، بل كان مدار تفكيرها في وحدتي ..

وقالت إنه لا يليق أن أتزوج مثلها .. يا ويلتاه ! الله يعلم أين هي الآن .. فانها ذهبت مع جوان جارسيا .. إنه رجل كريم ، ذو قلب من ذهب .. وأظنهما تزوجا ..

وصمت برهة ، ثم راح يقول :

— سألتم إن كنت أحبها ..؟ إلا أنها لكلمة رخيصة .. فانها كانت قطعـة من نفسي .. وهذا هو تصوير شعوري الصحيح حيالها ..

وجلس يحدق صامتا في لهب الشموع الضاءة في ثريائها ..

ولم تلبث الأم أن نهضت ودنت منه فقبلته قائلة :

— إننا لا نريد يا بنى سوى سعادتك .. إن كان هذا الزواج يضايقك ...

فهز بدرو رأسه قائلا :

— كلا .. إنى أحب لويزا دى كارفجال بمعنى كلمة الحب الطاهرة .. وسنكون سعيدين كأغلب الناس .. إننا أصبحنا خطيبين ، وأريد إتمام الزواج ..

ولما فطن إلى نظرات الألم فى عينى أمه أردف قائلا :

— وسنكون فى أتم سعادة ..

وحيا والديه تحية المساء ، وانصرف الى غرفته ..

وجلس الوالدان مكتئبين برهة .. ثم قال دون فرنسكو لزوجته :

— إن الزمن يأسو الجراح يا عزيزتى ، وإن كان أثر هـذا الجرح سيلازمه حتى الموت .. لكن سواء شئنا أم أبينا ، فان هذه الجراح هى نصيب الانسان فى الحياة

## الفصل الرابع

استرد بدرو جواده القديم كيدور ، وقصد به الى الجبال فى اليوم التالى للرياضة والتدريب ، فكان طبيعيا أن يعرج على حانة روزاريو ..

وكان استقباله فى الحانة مشهودا حافلا .. ورحب به سانكو لويز صاحب الحانة خير ترحيب .. وسار معه بين الموائد يستذكر الأيام الخوالى وهو يتوقع بين لحظة وأخرى أن يرى كاتانا .. فهنا جلس لأول مرة مع جوان جارسيا .. وإلى هذا الخوان جلس أسيراً بين جنود محكمة التفتيش يوم اعتقاله .. ولكنه تغلب على مشاعره وتبع صاحب الحانة إلى ركن قصى حيث جلس ودعا سانكو لويز الى مجالسته فقبل بعد لأى احتراما لقدر زائره العظيم ..

وقدم الشراب إلى الضيف ، وتحدث بدرو عن كاتانا ، فقال إنها الآن سيدة عظيمة فى أسبانيا الجديدة ، وأنها موضع التقدير والاحترام بين أفراد الحلة ..

وتطرق بدرو الى الحديث عن دى سيلفا ، فقال لصاحب الحانة :

— لقد سمعت أنه الآن فى البلاط .. إن لى معه حسابا قديما لا بد من تسويته

فقال لويز :



— إنى أدعو لك بالتوفيق والفوز عليه .. فهو خنزير قذر .

فقال بدرو :

— أتصفه لى وأنا أعلم الناس به ؟ ولهذه المناسبة ، أتذكر أنك قلت يوم اعتداء رجاله على كاتانا أنك تعرف عن هذا الفارس شيئاً يمكن أن يلزمه السكوت والهدوء ؟ فهلا أخبرتنى بما يساعدنى فى مهمتى ، فأكون لك من الشاكرين ؟

فقال لويز وقد جمدت ملامحه :

— أحقا يا سيدى ؟ أقلت شيئاً من هذا القبيل ؟

— نعم . قلت إنك تعرفه منذ كان شابا ، وأنه يعرف ما تعرفه أنت عنه ، ولذلك قلت إنك آمن منه .. لا ريب أنك تذكر هذا .

فتكلف لويز الضحك قائلا :

— هذا غريب .. إنى لا أعرف شيئا عن دييجو دى سيلفا .. وربما كان ذلك من قبيل التصورات والأحلام ..

فهز بدرو كتفيه قائلا :

— ربما كان ما تقول .. وعلى أى حال فليس هذا بذى بال .. وسنسوى الحساب نهائيا هذه المرة .. لقد سمعت فى اشبيليه أنه وقع أسيرا بين أيدى القراصنة أثناء عودته من كوبا ، وأنه استطاع أن يسرق منهم سفينة صغيرة فى الساحل الأفريقى ويقتل كثيرين منهم قبل عودته سالما الى ميناء ( ملقه ) .. إنى رأيت الجميع يتحدثون عن هذا الحادث ، ولم أكن أتصور قط أن يكون دى سيلفا بهذه الجرأة !

فهز لويز رأسه قائلا :

— ربما .. لست أعرف .. لكنى أوصيك بالحذر يا سيدى .

وشرب بدرو كأسه ، وهم بالوقوف ، حين خطر له خاطر ، فقال لصاحب الحانة :

— اسمع يا سانكو .. أليس عندك اثر تركته كاتاناهنا ؟ شىء أخذه تذكارا منها ؟ لو فعلت لجعلتنى مدينا لك بالشكر يا صديق ..

فتنهى لويز أول الأمر أنها تركت شيئا .. على أنه قال بعد تفكير :

— نعم .. هناك كوبها الذى كانت تشرب منه .. سأذهب فأبحث عنه ..

وانتظر بدرو فى لهفة حتى عاد اليه ومعه الكوب مكتوبا عليـــه اسمها . . فتناوله ورفعه الى فمه قائلا :

— أقسم أنى لن أتناول شراب الماء إلا من هذا الكوب ما عشت .. شكراً لك يا سانشكو .. شكرا عظيما ..!

وتقدم بدرو عشرة جنيهات ذهبيـــة كانت معه قبلها الرجل بعد تمنع ، ثم ودعه وامتطى جواده ..

على أنه لم يكد يبتعد كثيرا فى الطريق الى البلدة حتى سمع وقع حوافر جياد تدنو سراعا ، وإن هى إلا دقائق حتى ألفى نفسه محاطا بثلة من الفرسان ، وإذا هو إزاء كبيرهم الذى تقدم منه قائلا :

— هل أنت بدرو دى فارجاس ؟ الكابتن دى فارجاس المزعوم ؟

— أنا هو .. لكن ليس المزعوم ..!

— لا بأس .. أنا ( كلاروس دى باز ) ، كابتن فى حرس صاحب الجلالة ..

وأخرج الضابط وثيقة مختومة نظر عليها بسبابته قائلا :

— هذا أمر باعتقالك ..

— اعتقالى . . !

— بتهمة الخيـــانة العظمى ضد صاحب الجلالة الامبراطورية . . أتحب أن تقرأ ؟

فبسط بدرو يده مشدوها .. وإذا الأمر باعتقاله واضح صريح لا لبس فيه .. فرد الوثيقة الى الضابط قائلا :

— لكن لأى سبب بالله ؟

— وكيف أعرف ؟ يمكنك إلقاء هذا السؤال فى طليطلة .. إنى حامل أوامر . . سلم سيفك يا سيد دى فارجاس ..

## الفصل الخامس

ظل بدرو يحملق مشدوها فى وجه الضابط بعد أن جرد من ســـلاحه . . فهو لم يصدق أن الافلات من رجال مجلس الهند بمساعدة وتحت رعاية دوق سيدونيا يعد خيانة عظمى مهما يكن فى هذا من مخالفة للقانون ، بيد أنه لم يجد فائدة من مناقشة الضابط الذى لا يملكه أو لا يريد أن يزوده بالبيان المنشود ..



وقال كلاروس دى باز :

— يؤسفنى أن أؤدى هذا الواجب أيها السيد ... إن اعتقال نجل دون فرنسكو دى فارجاس هو آخر شىء كنت أتمناه ... لكن رجال الجندية غير مخيرين كما لا ريب تعرف ...

فقال بدرو وقد استجمع أفكاره :

— هل تكون من أقرباء الفارس والجندى الشهير ، بدرو دى باز ، الذى كان رفيق والدى فى إيطاليا ؟...

فأجاب الضابط وقد لاحت عليه أمارات السرور :

— أنا ابن أخيه ...

— إنى نشأت وأنا أسمع قصص البطولة عن بدرو دى باز ... وقد درج والدى على أن يقيم قداساً على روحه فى ذكرى وفاته ... اصغ إلى يا كابتن ... مهما يكن رأيك فى شخصى ، فلا شك أنك وهؤلاء السادة مشيراً إلى الجنود لن تمنعوا على دون فرنسكو شرف استقبالكم فى بيتنا ...

فتردد الضابط برهة وتبادل النظر مع فرسانه ثم هز رأسه قائلا :

— إنه ليشرفنا أن نبلغ تحياتنا واحترامنا لدون فرنسكو ... ثم إننا ركبنا طويلا ونود أن نرتاح قليلا ... أما أنت يا كابتن دى فارجاس ، فقد قيل لى على لسان شخصية عالية متمتعة بعطف صاحب الجلالة ، أعنى دييجو دى سيلفا ، أنك قرصان خطر ومقاتل شديد البأس ... لكن يبدو لى من هيأتك أنك رجل يطمئن إليه ... لقد صدر لى الأمر باعتقالك والذهاب بك إلى طليطلة ، وتركت لى حرية التنفيذ ... فهل تقسم لى بشرفك على أن تبقى أسيرى حتى أتم واجبى ؟..

فأجاب بدرو :

— لك ما تريد .. ثم إنى كنت ذاهبا من تلقاء نفسى إلى طليطلة ، ولست أجد أحب من رفقتكم أيها السادة ...

فقال دى باز :

— إذن فلا اعتراض عندى ... أيرد السيف إلى الكابتن ، وسنشرف بزيارة

والده الأكرم ... لكنى أسارحك ياسيدى إلى مسرور بهذه الفرصة التى سنحت لى للاتصال بواحد من فرسان هرنان كورتيز ... والحق أنى أغبطك لما اشتركت فيه من الأفعال المجيدة فى أسبانيا الجديدة ... ولست أفهم فى الواقع مكر هذه النجدة القائمة حول الدعو فيلاسكيز حاكم كوبا ...

فقال بدرو وهو يطلق لجواده العنان فى زمرة الفرسان :

— سأخبرك بما تريد ... لكنى أود أن تخبرنى أولا عن موضوع اعتقالى هذا... فانى أشعر كأننى تحت كابوس ثقيل ...

فهز الشابط رأسه قائلا :

— اقسم أنى لا أعرف عن هذا شيئاً سوى ما يقال من أن صاحب الجلالة غاضب عليك أشد الغضب ... وإنى لا أحسدك ياسيدى على هذا الموقف ، فان الامبراطور لا يغضب إلا نادراً

— ألم يصل رسول من قبل دوق سيدونيا برسالة مرفوعة إلى صاحب الجلالة ؟..

— هذا ما لست أعرفه وأيم الحق ... لكن ... ما هذا ، بحق الشيطان ؟ . .

فقد برز من بوابة البلدة التى كانوا يدنون منها ، موكب الفرسان على رأسه دون فرنسكو ... وتفصيل ذلك أن عمدة جاين ما كاد يعلم أن ثلة من الفرسان السلحين قد مروا بالبلدة يبحثون عن بدرو وأنهم ساروا فى طريق الجبال حتى قرر أن يلحق بهم من فوره ...

وقبل أن يصدر الكابتن دى باز أوامره إلى رجاله بالتأهب لقاء القادمين ، تدخل بدرو طالبا إلى الكابتن أن يسمح له بالتحدث مع والده على انفراد لبيان حقيقة الموقف فلما أذن له وانضم إلى والده قال له :

— تحكرماً لك يا سيدى الوالد على مبادرتك لنجدتى ... لكن هؤلاء فرسان صاحب الجلالة بقيادة الكابتن دى باز ابن شقيق دون بدرو دى باز الذى يود ابلاغك تحياته واحترامه ... وأنا الآن أسيره بمهمة الخيانة العظمى ، وقد وعدته إلا أقاومه ...

فقال الفارس الشيخ وقد ارتسمت على محياه علائم الذهول :

— لكن ما هو ...



— لست أعرف شيئاً عن الحقيقة ... وأعتقد أنها ضربة من دييجو دى سيلفا... ولعل الرسول الذى أوفدته بالاتفاق مع دوق سيدونيا من أشبيلية للابلاغ عن حيازتى الكنز المرفوع إلى صاحب الجلالة وإنى شاخص قريبا إلى طليطلة — لعل هذا الرسول لم يصل بعد ...

ومهما يكن فقد عاد بدرو مع والده إلى زمرة الكابتن دى باز ، وبعد تبادل السلام وعبارات المجاملة دعا دون فرنسكو الكابتن ورجاله إلى ضيافته ، فلبوا الدعوة ، وولى الجميع وجوههم شطر دار آل دى فارجاس . . .

وقد أظهرت دونا ماريا الجزع لما علمت بما يوشك أن يحل بابنها ، بيد أن دون فرنسكو أزمها التجلد ، وقال إنه ذاهب مع بدرو ، وإنه سيكتب إلى الركيز كارجال ليرافقهم أيضا ، وإلى الدوق وغيره من الأصدقاء لبذل مساعدتهم حتى لا تطول محاكمة بدرو وحتى تتحقق براءته فى وقت قريب . .

وكذلك سطر الركيز رسائله وبعث بالرسل إلى الجهات التى عناها ..

بيد أنه لم يلبث أن تلقى من الركيز كارجال جوابا مخيباً للآمال ... فقد اعتذر باعتلال صحته رغم أنه كان فى حال طيبة بالأمس فقط ، وأعرب عن أسفه لما أصاب بدرو ، ورجا أن تنكشف هذه التهمة عما قريب . . . وقال إنه لو لم يكن محتاجا إلى معونة لوزا فى حالته الصحية الراهنة لبادرت بتوديع بدرو ، ولكنها لن تنساه فى صلواتها صباح مساء . .

ولما اطلع بدرو على هذا الجواب ارتسم ابتسامة العارف الخبير بأطوار الركيز ، وغمغم لنفسه قائلا :

— ما أشبه الليلة بالبارحة !.

●●●

وانتهت الضيافة عصر اليوم ، فسار الكابتن دى باز بأسيره ووجوههم طليطلة يرافقهم دون فرنسكو وطائفة من رجاله .. واستمر السير عشرة أيام كاملة ، حتى إذا أشرفوا على ارباض طليطلة انحنى بدرو بوالده ناحية مودعا ، فأعطاه كتاب كورتيز إلى

الامبراطور ، وإيصال إبداع الشعب المخلص لجلالته لدى رئيس دير لارابيدا ، وقال له في هذا الصدد :

— لا أريد أن يقع هذان في غير يد صاحب الجلالة ، فان كل شيء جائز الوقوع في سجن طليطلة ، ودى سيلفا لم يبرع إلا في العمل في الظلام .

فقال دون فرنسسكو :

— يبدو لي يا بني أن نهاية هذا الطاغية دى سيلفا قد أزفت ، وأنه سيحفر قبره بيده .. لكن مهما يكن فاني سأزورك في السن لأطمئن عليك ... فان لديك الذهب ، ولدى مكانتي ، وهما مفتاحان يحول عليهما في هذا المقام ...

وتنحى دون فرنسسكو عن الركب لدى دخول المدينة .. واقتيد بدرو إلى السجن حيث عهد الكابتن دى باز بأسيره إلى السنيور دى هريديا المأمور الغليظ التجهم ، الذى قال على الأثر :

— ماذا يفعل هذا الرجل بالسيف والخنجر ؟ .

وانتزع دى هريديا السلاح من بدرو في غلظة وألقى به على خوان أمامه ، قائلا :

— ستسمع أنباء أخرى من هذا القبيل يا كابتن دى باز .

فلم يعره الضابط الكريم اهتماما ، وودع بدرو قائلا :

— إلى اللقاء .. يؤسفني أن أتركك في مثل هذه البيئة ..

وما كاد الضابط ينصرف حتى ألقى المأمور نظرة شزراء على سيفه وقال للحارس :

— خذ هذا المخلوق إلى البرج ، وإن كنت لا أدرى كيف يعامل الخائن أفضل من معاملة القس ! .

## الفصل السادس

كانت غرفة بدرو في البرج جنة بالقياس إلى أقبية السجن السفلى ، فقد غمرها الضوء والهواء ، وكان بها سرير وستائر ..

وأظهر الحارس رقة متناهية بعد أن احتوى جيبه الجنيه الذهبي الذى دسه بدرو في يده ، وراح يقول :

— نعم .. ليس في أسبانيا كلها سجن توفرت فيه وسائل الراحة للأعيان مثل



هذا .. إني لبثت هنا ثلاثين عاما ، وخدمت كثيرين من أبناء الأسر الكبيرة ، فمنهم من قدمت له آخر أكلته ، ومنهم من قدمت له النبيذ الجيد لتثبيت أعصابه وهو يصعد إلى المشنقة .. هل تعرفون ...

وراح الحارس يعدد له كثيراً من الأسماء المعروفة ، واسترسل قائلا :

— إني كنت أعنى بهم كالأم حين يعزفهم دولاب التعذيب .. أتدرى يا سيدى أن (فادريك دى مندموزا) قد شنق نفسه في عمود هذا السرير ؟ . إني أنزلته في الصباح جثة هامدة وقطعت الحبل الذى شنق به نفسه .. ولم يكن هو أول من فعل هذا ... فان حاجم اركيز قد شنق نفسه أيضا في قضبان النافذة .. إن هؤلاء السادة المساكين كانت أعصابهم تخونهم فيلجأون إلى الانتحار ... ومن هنا أطلقنا على هذه الغرفة (برج الانتحار) وجعلنا منها مادة للتسلية في غرفة الحرس !

فقال له بدرو تغيراً لحديث هل تجد الخدمة رابحة ؟

— لا بأس بها ياسيدى .. — إذا خدمتني فان تندم على معروفك

— إني أقبل قدميك ياصاحب السيادة .. وماعليك إلا أن تأمر

— اليك الطلب الأول .. إذا جاء والدى أو غيره لزيارتي وسهلت هذه الزيارة فسوف تنال خمسة جنيهات ذهبية في كل مرة

فقال الحارس وقد سال لعابه : سأبذل جهدى ياصاحب السيادة ..

وتناول بدرو طعاما رديئاً جيء به من حانة مجاورة بثمن فاحش ، وجلس ينتظر ماتتمخض عنه الحوادث ..

ولم يكن يحير بدرو سوى لغز اعتقاله .. فما سببه ؟ وماذا يكمن وراء تهمة الخيانة العظمى ؟ وإذا كان الرسول الذى أوفده من قبله ومن قبل دوق سيدونيا قريبه لم يصل إلى الامبراطور ، فليس من شك في أنه سوف يتهم بسرقة الذهب .. لكن من العسير أن يصدق الانسان عدم وصول الرسول ، الا إنه لم يعمل بمشورة الدوق وليته شخص من فوره إلى الامبراطور .. ومع ذلك فان الطريقة التي سلكها كان لها مايبررها .. فان الامبراطور لم يصل إلى أسبانيا إلا منذ عهد قريب ، وكان حين وصوله منهمكا في خمس موضوع الاضطرابات الأخيرة في أسبانيا .. وكان من رأى دوق سيدونيا في ذلك الحين

أن تأخير بدرو فى الذهاب إلى البلاط إلى مابعد إبعاد الرسول وحتى تبذل المساعى التى يتولاها مريدوه ، سيكون له أثره فى مضاعفة النتيجة الباهرة المنشودة وفى إنقاذه مسحة من المجد أبهى على الهمة التى يضطلع بها بدرو .. لكن قد وضح الآن أن هذه التقديرات لم تكن قائمة على أساس سليم .. وقد قصر بدرو والدوق فى تقدير مدى عنود أسقف بورغوس ومبادرته إلى اغتنام الفرص . . .

بيد أن بدرو لم يكترث بحنكته الراهنة قدر اكتراثه بهبوط الهمة الجليلة التى وكلها اليه كورتيز واختاره لها دون الجميع ..

وبينما كان بدرو غارقا فى هذه التأملات وقد أوشك النهار أن ينصرم إذ سمع وقع أقدام ترتقى درجات البرج ، ثم فتح باب غرفته ، وإذا والده هو القادم

وتعانق الاثنان بينما انسحب الحارس وهو يغمغم قائلا : إن هذا العمل قد يطيح برأسه رغم الذى ناله من أجر مضاعف .. ولما قطن بدرو إلى علائم القنوط البادية فى محيا أبيه قال له على الأثر : هل من أخبار ؟ فراح الأب يقول :

— الواقع يابنى أنى لم أترك حجراً إلا قلبته .. لكن الصدافة سرعان ماتفترإذا لاحت بوادر الخطر . . لقد كنت أعول على اثنين من أبرز الحكام فى أسبانيا ومن أوثق معارفى ، لكنى أخطأت التقدير .. وعلى كل حال لم أوفق فى الحصول على البيانات الشافية إلا من الرسولين اللذين أوفدهما كورتيز منذ ثلاثة أعوام ، وأعنى بهما مونتيجو وبورتكاريرو .. وقد علمت منهما سبب تهمة الامبراطور عليك

— أحقا ؟ هذه نتيجة طيبة .. ماالسبب إذن ؟

فقال دون فرنسكو بصوت خافت :

— أولا ، لم يصل رسولك . وقد يكون للأسقف أولدى سيلفا يد فى ذلك ، لأن حركاتك فى أشبيلية كانت محل نظر (مجلس الهند) .. ولذلك فأنت متهم بسرقة كنز صاحب الجلالة

فضحك بدرو ضحكة الارتياح قائلا : ذلك ماتوقعته .. إذن فهذا كل ماهنالك! لابأس ياسيدى الوالد .. كل ماعلى هو أن أقدم إيصال تسليم الكنز إلى رئيس دير لارابيدا وكتاب كورتيز إلى الامبراطور وفى هذا مايضع حداً لكل افتراء ...

فهز دون فرنسكو رأسه قائلا :



— ليت الأمر كان كذلك ، إذن لهان الخطب .. لكن هناك تهم أخرى

— تهم أخرى ؟ وكيف ذلك ؟

— إنك متهم مع الجنرال كورتيز نفسه وجميع ضباطه بالتمرد على سلطة الملك فى شخص فيلاسكيز حاكم كوبا

فلم يتمالك بدرو أن انفجر قائلا :

— التمرد على سلطة الملك ؟ ! . . أيقال هذا وكل ماقعلناه إنما كان فى خدمته وفى سبيله ؟ أيلصق بنا هذا الاتهام الظالم بمجرد أننا لم نترك حاكم كوبا يسلبنا ماغنمناه ؟

فأومأ دون فرنسكو برأسه وراح يقول :

— هو ذاك .. لكن لاترفع صوتك يابنى ، فانى أعتقد بفراستى أن حارس غرفتك هو جاسوس عليك . . واسمع الآن التهم الأخرى . . فانكم متهمون بالاساءة إلى سمعة اسبانيا بتلك الذبائح التى ارتكبت ضد الهنود الحمر المسالمين . . وأنتم متهمون بتدبير مصرع القس ايناسيو دى لويولا .. وأنتم متهمون بالتآمر على سلطان صاحب الجلالة بمحاولة إقامة كورتيز ملكا على اسبانيا الجديدة . . وأنتم متهمون باستعمال القسوة المتناهية ضد بحارة السفينة الذين اشتراهم دى سيلفا والذين يشهدون بأنهم سمعوا جهدهم لمنعك من اغتصاب الكنز الملكى ..

واختتم دون فرنسكو فى سخرية لاذعة :

— وصفوة القول يابنى أنت شر من أنجبته أمتنا هذه من الوطنيين . .

جلس بدرو مقلب الوجه مطبق اليدين فاغر الفم ، وظل كذلك برهة حتى قال :

— لكن لماذا لم يتهم مونتيجو وبورتكاريرو؟ ولماذا لم يودعا السجن أيضاً ؟ . . إنهما كانا من رجال كورتيز .

— لقد دافعا عن نفسيهما بأنهما غادرا أسبانيا الجديدة قبل وقوع تلك الفظائع الدموية اليكم .. لكنهما يعيشان فى خوف ويستعدان لمغادرة طليطلة . .

ثم أردف دون فرنسكو بعد قليل :

— تذكر أن مسامع الأمبراطور قد امتلأت بأنصاف الحقائق وكافة الأكاذيب التى ألقى فيها الأسقف ودى سيلفا .. ثم إنهما نشرا تلك الفقريات فى دوائر البلاط . . وقد نمى إلى أن دى سيلفا نال الحظوة لدى الأمبراطور وانه يحيا حياة البذخ وقد اتخذ

لنفسه حاشية خاصة ... كلا يا بنى ... إنما جربتك الكبرى أنك لم تقتل هذا المخلوق حين تهيأت لك الفرصة ... ولسوف تفقد رأسك تحت سيف الجلاد إلا إذا استطعنا أن نخرس لسانه !..

فقال بدرو يهدىء والده : ما هكذا يكون العمل يا أبتاه ... لم يحن أوان هذا بعد ... ولو فعلنا لكان فيه تعزيز لأكاذيبه ..

— نعم ... لكن ما العمل ... لو بقى على قيد الحياة !...

— إنك ياسيدى الوالد قد كتبت إلى دوق سيدونيا قريبنا ، وإلى دوق بجار ... وسيقف كلاهما فى صفنا ...

— نعم ، لوجاء فى الوقت المناسب ، وندعو الله أن يجيئنا ... بل ندعوالله أن تؤجل المحاكم حتى يجيئنا ...

وخيم الصمت هنيهة ، لما لبث دون فرنسكو أن قطعه قائلا :

— إنى نسيت شيئا ، فيما كنت أغادر الفندق إذ جاءنى رجل فقير وقدم لى هذه الرسالة قائلا إنها لك ... ولما سألته عنها قال إن صديقا متواضعا فى جاين سمع بما أصابك ، فبعث إليك بهذه الرسالة للاعراب عن مشاعره ... إليك هى ...

وسمع صوت فتح الباب حين دس بدرو الرسالة فى كيس ثوبه ... ثم أطل الحارس برأسه وأعرب عن أسفه قائلا إن الموعد قد انتهى ، فتصافح الأب والابن ، وإن هى إلا برهة حتى بقى بدرو وحده فى الغرفة ...

ولم يكد بدرو يخلو إلى نفسه حتى فض الرسالة وقرأها ، فاذا هى محررة بخط ردىء وكانت بالنص التالى :

« إن سانكو لوبيز لم يجب على سؤالك بشأن كلب اسود لأنه يخشى على حياته ... ولو أنه أجاب ، لكان هذا جوابه ... فمنذ سنوات بعيدة عرف الكلب الأسود فى ميناء ملقة وهو يعرف الآن أن هذا الكلب الأسود قد استحال من فقير إلى غنى بانصافه سراً بأعداء أسبانيا من القراصنة الذين يغيرون على سفنها ... وقد زار مرة هذا الكلب الأسود زعيم القراصنة فى مرتبته فى الشاطىء الآخر ... ولا تسل كيف عرف سانكو لوبيز هذه المعلومات ، ولكن ثق أنه رجل شريف أمين ... وكل ما يريد أصدقاؤك هو أن تفيدك هذه البيانات » ...



وفى الحق أن بدرو لم يكد يستوعب فحوى الرسالة حتى لمعت عيناه اهتماما .. فقد وقف على سر خطير مؤداه أن غريمه دى سيلفا كان فى شبابه أداة للقراصنة ، يفهم حركات السفن وتنقلاتها ..

بيد أنه لم يكد ينعم النظر حتى فترت حماسته .. فقد حدث ما حدث منذ أعوام بعيدة ، ولا دليل عليه سوى كلام كاتب مجهول .. ثم إن دى سيلفا رجل ذو حظوة فى البلاط ، وهو قريب أسقف بورغوس .. وكيف يستطيع أسيرهن المحاكمة أن يتقدم بمثل هذا الاتهام دون أن يضر بقضيته أبلغ الضرر ؟.. ومع ذلك ، فان إفلات دى سيلفا من أيدى القراصنة أخيراً على تلك الصورة الرتانة .. فهل يمكن ... ؟

وسمع بدرو صوتاً خفيفاً خلف الباب قطع عليه خواطره ، فما رفع رأسه لمح الكوة الصغيرة فى أعلى الباب تغلق ، فيداله أن أحدهم كان يراقبه خلسة ، ولعله الحارس

ودس بدرو الرسالة فى جيبه الداخلى .. ولم يمض وقت طويل حتى جاءه الحارس بعشاء دسم لم يمانع بدرو فى دفع الثمن الباهظ الذى حدد له .. وقال له الحارس :

— إنى أوصيك ياصاحب السيادة بالنبيذ ، فهو من خمر اليقانتى العتقة ..

فقال له بدرو : إذا كان الأمر كذلك فانى أدعوك إلى شرب كأس منه معى ..

وشد ما كانت دهشته حين رفض الحارس معتذراً باعتلال أمعائه ونهى الطبيب له عن الشرب .. فلم يلح بدرو .. وملأ كوب كاتانا الذى كان يحمله فى سرجه من النبيذ، بيد أنه فضل أن يأكل أولا ، وان هى إلا برهة حتى انسحب الحارس بعد تردد ..

وكانت مصادفة محضة حين رفع بدرو نظره إلى الباب مرة أخرى فرأى الكوة مفتوحة .. فدهش من ذلك وتساءل عما يحمل هذا الحارس على مراقبته خلسة وهو يأكل وكان بوسعه أن يبقى داخل الغرفة ..

لم يلبث بدرو أن داخله الشك . فان اعتذار الحارس عن الشرب بعدما تداخله جودة النبيذ هو أمر يبعث على الريبة حقا . وأغرب من هذا تجسسه عليه من كوة الباب . وتذكر فى هذه اللحظة ارتياب والده فى الرجل .. فقرر أن يقوم بعمل يقطع الشك باليقين ..

عند ذلك رفع بدرو الكوب وتظاهر بالشرب ، ثم وضعه وهو يمصمص بشفتيه ، وأقبل على الطعام ، ولما تطلع الى الباب مرة أخرى ألفى الكوة قد أوصدت ..

لم يشبع بدرو لحظة واحدة ، فقد حمل قنينة النبيذ إلى إبريق الماء فصبه فيه بعد أن أفرغ الماء فى الطشت، فانه لم يشأ أن يشبع النبيذ هدرا إذا أسفرت ظنونه عن غير شيء

وعاد بعد ذلك إلى الحوان فأكل العشاء وتمدد وتعلى وتاءب .. ثم نام فوق الحوان مسنداً رأسه إلى ذراعيه على نحو يمكنه من أن يلمح بزاوية عينه ما يدور حوله

ومضى نصف ساعة .. وأخيراً سمع الكوة تفتح .. ثم دخل الحارس على الأثر .. لكن ملاعبه لم تتم هذه المرة عن طيبته السابقة ، بل نمت عن مزيد الانتباه والتيقظ شأن الخبير المجرب ..

وسعل الحارس أولا ثم حرك قدميه.. فلما اطمأن أخرج من خلفه شيئا كان يخفيه فى يده اليسرى، وما كاد بدرو يلمحه حتى اقشعر بدنه.. فقد كان حبل مشنقة بكامل أجزائه.

## الفصل السابع

لما اطمأن الحارس إلى غياب السجين عن الصواب شرع يعمل بخبرة الرجل المدرب.. فرفع ملاءة السرير وضفرها على هيئة حبل وجعل فى نهايتها أنشوطة ، ثم علقها فى أعلى السرير ..

سرعان ما أدرك بدرو مغزى هذه الحركات .. فقد كان يراد إخماد أنفاسه بحبل المشنقة ، ثم وضع الأنشوطة المصنوعة من ملاءة السرير حول عنقه حتى يبدو وكأنه انتحر .. ولن يكون فى هذا ما يبعث على الغرابة ، لأن معناه أن الأسير قد عجز عن احتمال التهم المسندة اليه ، فشنق نفسه ، وبذلك يؤيد التهم ضده ، كما يوفر على متهميه كل عناء من ناحيته ، ويختم القضية نهائيا .. ولعل فى هذا تفسير تلك القصص التى سردها الحارس عن السجناء الذين وجدوا ( منتحرين ) من قبله ..

ولم يتعجل الحارس مهمته .. فقد راح يفتش فى سرج بدرو وهو يترنم بأغنية خفيفة وأخرج منه كيسا من القطب قدر أن السجين لن يغدو فى حاجة اليه .. فلما تم له ذلك تمر عن ساعديه ، وتناول حبل المشنقة ولفه حول عنق بدرو ، ولم يبق إلا أن يجذب طرفه فيحمد أنفاسه

لكن سرعان ما انعكست الآية .. فقد امتدت ذراعا بدرو بحركة خاطفة وأطبقت يداه على رأس الحارس من خلف وهو ينحنى فوقه ، وبحركة بارعة جذبه وطوحه على الأرض ، ثم عاجله بلطمة عنيفة فى فكه استخرق على أثرها فى سبات عميق



ولما أفاق الحارس إلى وعيه بعد بضع دقائق ألفى نفسه جالساً فوق المقعد وقد وضعت كمامة فى فمه ووثق بالملاءة والف حبل المشنقة حول عنقه ..

وقال له بدرو : الآن نوسعنا أن نتكلم .. هل تشعر بتحسن ؟

فلم يخرج من ثنايا الكمامة سوى همهمة محتبسة .. فوقف بدرو خلفه وجذب حبل المشنقة جذبة خفيفة جحظت على أثرها عينا الحارس .. وأردف بدرو :

— هأنت ذا ياصديقى ترى الموقف على حقيقته ..

ثم خفف ضغط الحبل على عنقه ، ودار حوله ، وجلس فى مواجهته ، واستطرد قائلا:

— إن حياتك رهن بالكلام ، وقد أعفو عنك إذا علمت منك ماأريد .. إنى سأنزع الكمامة من فمك ، وإذا ارتفع صوتك كانت نهايتك مؤكدة .. والآن أجب عن أسئلتى ، والتزم الصدق ، لأنى سأعرف إن كذبت

وأزاح بدرو الكمامة وهو يشدد فى نفس الوقت ضغط حبل المشنقة على عنق الحارس وراح يقول له : السؤال الأول .. من أجرك على هذا العمل ؟

فأجاب الحارس بصوت متحشرج : السيد دى سيلفا

— كم أعطاك ؟ — مئة جنيه ..

— وكان عليك أيضاً أن تسهل حضور الزائرين لى ، وأن تسترق السمع من خلف الباب ؟ — نعم ...

— وماذا طلب منك غير ذلك ؟ — البحث عن الأوراق ...

هنأ بدرو نفسه لبعد نظره حين ترك أوراقه مع والده .. على أنه تذكر الرسالة التى جاءته من سانكو لوبيز وأدرك أنها لو وقعت فى يد دى سيلفا لأفاد منها أبلغ الفائدة ..

ومضى بدرو فى أسئلته ، فقال : هل علمت متى تتم محاكمتى ؟ ..

— غداً ...

ولما شدد بدرو الضغط على عنقه امتد به الجزع وزادت حشرجته وهو يقول :

— هذه هى الحقيقة ! . ولا حيلة لى فيها ! .

— والآن أصغ إلى أيها الشقى .. إن ماسأقوله على أكبر جانب من الأهمية ، فان ساعدتنى عشت ، وإلا فوثاقك محقق .. أخبرنى بما تعرفه عن دى سيلفا .. إنه يعمل فى الظلام ، وأنتم فيران الظلام تشمون ما هناك ... إنى أريد أن أعرف ما يمكننى منه .. مفهوم ؟ . تكلم إذن ..

فأنكر الرجل بادىء الأمر أنه يعرف شيئا مما يريده بدرو . . . فلما اشتد الضغط حول عنقه وسال عرقه راح يقول بصوت مختنق :

— مهلا يا صاحب السيادة ! . مهلا ! . إنى أعرف من قتل الرسول القادم من أشبيلية .. إنهم ألقوا بجثته فى النهر .. والقتلة هم تيتو الفيرو ورجاله . . وقد استأجرهم دى سيلفا . .

— وأين يقيم المدعو تيتو هذا ؟.

فى حى ( سلفا دور ) قرب السوق . . لكن إنا عرفوا أنى ..

— لن يعرفوا ... أخبرنى للزيد عن دى سيلفا . . من هم الأشقياء الذين يخالطهم أو يستأجرهم غير تيتو ؟ .

— لا أعرف أحداً يا صاحب السيادة ..

— فكر ... — إنى رأيته ذات ليلة يخرج من دار بالوستونيجا . . .

— ومن يكون ؟ .

— هو تاجر غنى من الجنوب ، من ملقة . . هو مراب . . ويقال إنه من أصل يهودى .. لكن الناس يلجأون إلى هذا الرجل كلما كانوا فى ورطة . . .

أدرك بدرو أنه انتزع من الخارس كل ما استطاع ، وخصوصا ما اتصل بمقتل الرسول .. فجعل يفكر فى الخطوة التالية .. فبدا له أن الخارس يباع لمن يزيد الثمن .. ولو استطاع أن يحمل منه شاهداً على دى سيلفا لكان وجوده على قيد الحياة أجدى من الاجهاز عليه . . . ولذلك قال له :

— أنت تعلم أنى قريب دوق سيدونيا ، وأن للدوق سلطة واسعة ... ولن يدع مقتل رسوله يمر بغير عقاب مهما يكن الجانى . . . ثم إن دوق بيجار يؤيد الجنرال كورتيز الذى أنا ممثله .. هناك رجال أعظم وأقوى من دى سيلفا .. والعامل فى خدمتهم آمن على نفسه مما هو عند سواهم .. فلتتكلم بصراحة

وصمت بدرو برهة ، ثم راح يقول :

— ماذا أبى إذا أنت أخبرت دى سيلفا بالحقيقة غداً ، أعنى أنى لم أشرب النبيذ وأنى لبثت ساهراً طول الليل مما عجزت معه عن قتلى ؟ إنك لن تخسر بهذا شيئا ، سوى مائة جنيه ، وسأعطيك هذا المبلغ مضاعفاً . .

فتهللت أسارير الخارس لأول مرة وقال :

— إنك ياسيدى تخلق منى رجلا جديداً .. إنى سأكون خادمك الوفى



وفك بدرو وثاقه بعد أن وعد أن يشهد بما يطلبه ، ثم نقد خمسين جنيها من كيسه الذى استرده منه وقال له : ستنال مئة وخمسين أخرى إذا عدت من أين تأكل خبزك . . فان لم تفعل فالويل لك . .

— إنى رأيت من أساليبك ياسيدى مافيه الكفاية !

وتركه بدرو يخرج .. ثم وضع خلف الباب كل ماالتقى عنه من أثاث الغرفة حتى يسمع إذا فتح بابها ، وبعد ذلك استلقى على الفراش ..

بيد أنه لبث حينا وهو يقظان مسهد يفكر فى أوجه الدفاع التى يستدلها فى محاكمته لوشيكة غدا . . لقد استقر عزمه على أن يفضح دى سيلفا ويشهر به . . وإذا كانت براهينه وحججه لاتبلغ مبلغ الاقناع الدامغ فلعل الحظ أن يواتيه بما ينصره على عدوه ويمكن له منه . . واستيقظ بدرو وأشعة الشمس تنير الغرفة . . .

لقد أزفت ساعة المحنة .. وعلى الله قصد السبيل ..

## الفصل الثامن

أدخل بدرو قاعة المكتب الأمبراطورى مقيداً بأغلال خفيفة للدلالة على حالته كسجين ومثل بين يدى الأمبراطور الذى تلقاه بنظرة باردة لاذعة تتزايل منها القلوب . . ولم يفته أن يرى دى سيلفا واقفاً عن يسار الأمبراطور ، وأسقف بورغوس غير بعيد عنه ، والمستشار جاتينارا عن اليمين ..

وقال له الأمبراطور حين ركع على إحدى ركبتيه :

— تقدم يابدرو دى فارجاس ... إنه ليس من عادتنا أن نستجوب المتمردين قبل محاكمتهم ، فاننا نتركهم لقضاتهم ، لكنى فى هذه المسألة اشتهيت أن أرى رجلا قد تورط فى مثل هذه الجرائم المتعددة ...

فقال بدرو ولم تغب عنه تلك الابتسامة الظافرة التى ارتسمت على شفتى دى سيلفا :

— إذا كانت جرائمى يا مولاى قد أنالتنى اهتمام جلالتكم فلست بآسف عليها ، وخصوصا أنها قد ارتكبت فى خدمة جلالتكم . . . فهتف شارل :

— تبارك ياربى ! .. أراك تسرق حمل سفينة من الذهب مرسلا إلينا ثم تتجاسر فتزعم أن السرقة كانت فى خدمتنا ! . .

فتدخل المستشار جاتينارا قائلا :

— إن جلالتكم تسبقون حكم القضاء ...

— ليس هذا هو الواقع ... ألم يشهد ضباطنا الموكلون بالوفاء أن هذا الرجل قد أخرج من الأرض صناديق كثيرة من الذهب فى حضورهم ثم ذهب بها رغما عنهم ، زاعما أن الذهب له ؟ .. ماذا تريد أكثر من هذا ؟..

— لا أريد ، يامولاى ، أكثر من السماح للكابتن دى فارجاس بالاجراء المعتاد وهو الدفاع عن نفسه بلسانه ...

— لا بأس إذن ... تكلم ياهذا الكابتن ...

فقال بدرو : إنى قلت الحقيقة يامولاى ... فقد كان الذهب لى ...

فقال شارل مستاء : انظروا ! .. ها قد صمت الاعتراف من شفتيه ! . .

فاستطرد بدرو يقول :

— أما عن الذهب المغصوب لجلالتكم ، وقدره اربعمئة ألف جنيه ذهبا ، فهو باق حيث تركته عند رسو السفينة ... وهو رهن أوامر جلالتكم ...

فقال الأمبراطور وقد تبدلت نبرات صوته :

— أربعمئة ألف جنيه ؟.. أين ؟..

— فى دير لارايدا ... فى عهدة الأب توماس رئيس الدير ...

كان أول تأثير لهذا التصريح أن اختفت ابتسامة دى سيلفا ، بينما ردد شارل سؤاله :

— أربعمئة ألف جنيه ذهبا ؟ ..

وقبل أن يجيب بدرو رنت ضحكة مصدرها دى سيلفا الذى سبقه إلى الكلام قائلا :

— هل لى ياصاحب الجلالة أن أتقدم بتحذير متواضع ؟ . . إنى أرجو أن يوجد هذا الذهب حقيقة . . ولكن وجوده لايعدو حتى الآن أن يكون على لسان رجل قد تبيتم جلالتكم مبلغ اجترائه .. كم يستغرق التأكد فى لارايدا من أن دى فارجاس لم يترك هناك ذهبا ما ؟ .. أسبوعين على الأقل . . وفى هذه المدة يمكن، كما أعرف من أطوار هذا السيد ، أن يحدث الكثير ...

فقال بدرو باسما : صدقت ياسيدى.. مع فارق يسير هو أن معرفة الحقيقة فى لارايدا لن تستغرق أكثر من دقيقتين . . فقال شارل : وكيف ذلك ؟ . .



— أعتقد أن والدى دون فرنسكو موجود الآن فى البلاط .. فان معه وثيقة من لارايدا متصلة بالموضوع ، وكذلك كتاب من الجنرال كورتيز مرفوع إلى جلالتكم .. وقد عرفت من أطوار السيد دى سيلفا ما جعلنى غير آمن على إبقاء هذه الأوراق معى خوفا من فقدها ...

فقال الأمبراطور : ليدع دون فرنسكو إن كان حاضراً ..

وإن هى إلا هنيهة حتى دخل الفارس الشيخ فى احترام مشبع بالوقار ، فلثم يد الأمبراطور ، وقدم الأوراق التى عهد بها بدرو اليه ، وقال للامبراطور :

— أيمكن أن أعود يامولاى من حيث جئت ؟ . .

— كلا .. ابق هنا .. فقد نحتاج اليك ..

وفتح الأمبراطور إيصال الأب توماس وراح يقرأ ما به بصوت مسموع قائلا :

— انظر ياجاتينارا .. هذا خاتم الدير .. خمسة وثلاثون صندوقا مقول باحتوائها على ذهب يقدر بأربعمائة ألف جنيه .. لننظر ما يضيفه الرجل كورتيز إلى هذا . . .

وفض الأمبراطور كتاب كورتيز الطويل وراح يجيل فيه نظره على مهل وهو يقول بين وقت وآخر :

— سقوط عاصمة المكسيك.. البلاد كلها فى يد الجيش الأسبانى .. قارة بأسرها .. نعم .. خمسة وثلاثون صندوقا من السبائك الذهبية تودع فى دير لارايدا . . تساوى نصاب الخمس من كنز اكتشفه الكابتن بدرو دى فارجاس مضافاً اليه نصاب ثلاثة أعشار مهداة من مستعمرة (فيلاريكا) عربوناً على الولاء والاخلاص.. والكابتن دى فارجاس قد احتفظ لنفسه بخمسين . . ويحك ياسيد . . إنك من الأغنياء . . ! لا بأس . . إن الكتاب معزز لايصال رئيس الدير .. لماذا لم تبلغنا بهذا يا دى فارجاس ؟ كيف حملتنا على اعتقالك لكى تنتزع منك مثل هذه البيانات البالغة الأهمية ؟ أليس هذا التهاون أقرب الى الخيانة ؟

— كلا يا مولاى .. إنى لم أكد أصل الى أشبيلية حتى أوفد رسول من قبل خاصة دوق سيدونيا .. وقد تضمنت الرسالة التى حملها أنى جئت بأنباء هامة وهدية قيمة من المكسيك ، وأنى شاخص إلى طليطلة بطريق جاين لكى أشرف بالمثول بين يدى

جلالتكم ولم تصلوا إلى ( سنتاندر ) إلا منذ وقت وجيز .. وإن الدوق سوف يشهد على صدق هذا الكلام ..

— أي رسول ؟ لم يصل أحد ..

ولأول مرة حدج بدرو بنظره دي سيلفا الذي وقف يعبث بذقنه وقد شحب وجهه عن ذي قبل وتذبذبت نظراته .. بينما مضى بدرو يقول :

— أعتقد أن الرسول ذهب ضحية الكيد .. لكن لما كنت في نظر جلالتكم مجرما آثماً ، فلن يكون ثمة وزن ولا اعتبار لاتهام يصدر مني .

فقال الأمبراطور بعد تردد :

— لكن قد أتبين الآن أن بعض التهم الموجهة اليك لا يمكن أن تقوم لها قائمة .. فقد كانت وليدة الخطأ .. إنك جئت من أسبانيا الجديدة بأنباء عظيمة وهدية مقبولة . والظاهر أن الاتهام قام على التسرع .. ما رأيك الآن يا دي سيلفا ؟

فركع دي سيلفا بين يدي الأمبراطور قائلا :

— مولاي .. إني أنحى العتاب لنفسي .. إن الذنب ذنبي ..

— كلا يا سيدي . . إنك رويت شهادة ضباط ميناء ( بالوس ) وبحارة سفينة دي فارجاس .. ولم يكن بوسعك أن تفعل غير هذا .. فالذنب ليس ذنبك ..

— لكني يا مولاي قد فعلت أكثر من هذا أنا وأسقف بورغوس .. فقد اتهمنا هذا الرجل بالتمرد على جلالتكم في أسبانيا الجديدة ، وبالمروق الديني ، وبارتكاب الفظائع المنكرة ، وبتلويث سمعة أسبانيا ، وبالتآمر لقتل قسيس من رجال الدين .. وكما قلتم جلالتكم فقد تسرعنا .. ونود الآن أن نسحب هذه التهم ..

## الفصل التاسع

خيم صمت الذهول ... ولم ير بدرو في هيكل دي سيلفا سوى أفعى سوداء ضخمة فتاكة . وقد ارتسمت علائم الدهشة على الأسقف فونسيكا وعلى الأمبراطور ومستشاره سواء بسواء . .

وقال شارل بعد برهة : حقا ؟ . أتسحب التهم ؟ . وما السبب ؟

فقال دي سيلفا وما زال راكعا :

— حتى لا يقال يا مولاي إن تلك التهم الخطيرة قد تلاشت لمجرد مبلغ من المال قدمه دي فارجاس .. إني أعيذ جلالتكم أن تتجاوزوا عن هذه السبة ..



فقال الأمبراطور وهو يتخلل ذقنه بأصابعه : إني أحب الوضوح والبساطة . .

فنهض دي سيلفا وانضم إلى جانب الأسقف وراح يقول :

— نعم يا مولاي ... إن كورتيز ليس متمرداً ، بل هو رجل موفق . . . ولا يهم أن يقال إنه نائب الملك في أسبانيا الجديدة أو ملك متوج ، فالمهم أنه يجمع في يده مقاليد السلطان الفعلي ويستهزىء بكل سلطة أخرى . . ألا رحمة الله على نارفايز وعلى رجاله البواسل الذين قتلهم كورتيز أو نكل بهم . . إنه يهدي جلالتكم بلاداً شاسعة ولكنه في نفس الوقت يستبقيها لنفسه . . . وفي حين أنه كان مستطيعا أن يرفع إلى جلالتكم أربعين مليونا من الجنيهات ، إذا هو يجتزىء بأربعمائة ألف كمناورة لقبر الرماد. هذه هي أساليب النجاح الخفة ولا ريب ! .

فقال شارل وهو يتخلل ذقنه مرة أخرى : أربعون مليونا ؟ .

— نعم . . . فان كورتيز قد أعمل يد النهب في مئات الذين . . وقد رأيته ليلة الانسحاب يعتر مئات آلاف الجنيهات بين عامة الجنود .. ولست أقول إنه كان مستطيعا أن يستخلص من هذا نصيباً للخزانة الامبراطورية . .

فراح شارل يقول وقد ثارت ثائرته :

— اسمعوا أيها السادة .. كفى ما قيل في هذا الموضوع .. إننا لا نعين الحكام من قبلنا لكي تكون سلطتهم عرضة للسخرية والاستهزاء .. إننا لا نعين ولاة على أملاكنا فيما وراء البحار لكي يتجاهلهم هرنان كورتيز أو بدرو دي فارجاس ... إنك ياسيدي الأسقف ، وياسيد دي سيلفا قد أسندتم إلى هذا الرجل تهما معينة ... فينبغي إذن أن يواجهها .. وقد أصدرت أوامري بتعيين المحكمة التي تنتظر الآن بدء المحاكمة ..

تحققت مخاوف بدرو .. وأدرك أن الأنباء العظيمة التي جاء بها من المكسيك ، وهدية الذهب الجزيلة ، لم تكف لنجدة ساحته ، وان مفتريات الأسقف ودي سيلفا قد غلبت على كل حجة ودفاع .. وإذن فلم يكن بد من أن يضرب ضربته الأخيرة قبل فوات الأوان .. فقال متجلداً : أيمكن ياصاحب الجلالة أن ألقي سؤالا واحداً ؟

فقال الامبراطور : إننا سمعنا مافيه الكفاية .. ولم يبق أمامنا وقت . .

فتقدم دون فرنسكو قائلا : مولاي . . إن كنت قد تفانيت في خدمة أسبانيا ، وكانت لخدماتي قيمة ، فاني ألتمس أن تستمعوا لوالدي . .

فقال شارل عابسا متضجراً : لا بأس إذن . . لكن ليوجز . . ماهو هذا السؤال ؟

فقال بدرو : ألا يمكن يامولاى أن يكون لخلق التهم أثر فى قيمة التهم التى يتقدم بها

— بلى . . وإن كنت تشير بهذا إلى خلق متهميك ، فلتعلم أنه يعزز التهم الموجه

اليك . . فاما عن نباهة اسقف بورغوس فلست فى حاجة إلى بيان . . وأما عن السنيور

دى سيلفا ، فقد بركاه الأسقف ، فضلا عن الخدمات الجليلة التى أدها لنا . . فهل فى

هذا مايكفيك ؟

فقال بدرو وقد شعر بقلبه يخفق عنيفاً لان كل شىء يتوقف على اللحظات العصيبة القادمة

— فيه كل الكفاية . . لكن لاطرق صميم الموضوع . . وإنى سأتجاوز عما كان

من إيقاع هذا الرجل فى وبطلان اتهاماته الجوفاء لدى قداسة البابا والمجمع المقدس

وتدخل جلالتكم فى الامر

فتدخل شارل قائلا : هذه مسألة دينية كانت تختص بك وبرؤسائك . .

— ومع ذلك يامولاى فان الاتهام الزائف فى موضوع ما، لايزكى اتهاما جديداً يصدر

من نفس الرجل . . . وإنى أتجاوز كذلك عما كان من انضمام هذا الشخص إلى حملة

فى صفوف نافارا واعتباره تبعاً لهذا شاهدا مغرضاً بل إنى لن أعرض لما كان من هروبه

إلى كوبا بعد انحسار حملتاجين قدر أن الحملة قدباءت بالفشل التام ، وإن كنت أؤكد أنى

يود الآن لو بقى معنا حتى النصر النهائى . . ولن أشير إلى تخليه عنى وعن اثنين من زملائه

ليلة الانسحاب وهو من المحجلات الغرّيات ، لأنه لا دليل على هذا سوى كلمتى . .

فانتهره الامبراطور قائلا : تكلم فى صميم الموضوع !.. لا تريد خطابة !..

فاستطرد بدرو يقول :

— لن أخطب ياصاحب الجلالة . . . وإنما سأقتصر الآن على موضوع اختفاء الرسول

الذى أوفدته من اشبيلية ، وإن كان لدى من الأدلة ما يثبت أن رجلا مأجوراً من طليطلة

يدعى تيتو الفيرو قد اغتاله لحساب هذا الشخص . . .

فانفجر دى سيلفا مهتاجا بلهجة تباين لهجته الأولى :

— مولاى !.. هل أقف هنا . . . فقال شارل باسما :

— صبراً !.. سيكون لك دورك فى الرد . . . والآن يادى فارجاس ، هل انتهت

مقدماتك التى لا حد لها ؟..



— أجل يامولاى .. فهناك مسألة أخيرة على أكبر قسط من الخطورة . . . إنى

أتهم هذا الرجل بأنه صنيعة القراصنة وجاسوس لديهم وخائن لجلالتكم ولأسبانيا . . .

— ياالله !...

وجرد دى سيلفا سيفه وهجم على بدرو ، بيد أنه لم يكن أسرع من جانيارا الذى

سد الطريق فى وجهه ، بينما وثب الامبراطور قائلا :

— أنت ياسيد !.. أنسيت أين تكون ؟.. أتجرد السيف فى حضرتنا ؟ . لولا أنى

أعترف بخطورة الاستفزاز لأسلمتك توّاً إلى الحراس !..

فمالك دى سيلفا ورد السيف إلى غمدة وهو شديد امتقاع الوجه راجف اليدين وقال:

— إن اللحم والدم لا يقوى على احتمال كل شىء . . .

فبسط شارل يده قائلا نحو بدرو قائلا :

— إذا فشلت فى اثبات هذه التهم فانى أطلب لك الرحمة من الله !..

فتدخل دى سيلفا قائلا : — مولاى لا تدعوه يؤذى أسماعكم . . .

فقال بدرو : سأقيم الدليل على هذه التهم يامولاى .. فأولا ، إنى أسأل هذا الرجل

ألم يكن منذ سنوات وفى ملقه جاسوسا لحساب القراصنة يطلعهم عن حركات سفننا ويقبض

منهم مبالغ ضخمة نظير خدماتهم؟ إنى أعرف شاهداً فى جاين يستطيع إثبات هذه الحقيقة

فقال دى سيلفا وقد بدا كالغريق :

— مولاى .. إن صاحب حانة موبوءة يدعى سانكو لوبيز . . .

فقال جانيارا : إنه يعرف الشاهد على الأقل ..

فاستطرد بدرو يقول : وغير ذلك .. إنى أود أن يستجوب هذا الرجل أمام ملاح

مقتدر عن موضوع إفلاته من أيدى القراصنة . . فهو يجاهر بأنه جندى لا بحار . .

فكيف استطاع إذن بعد قتل بحارة سفينة القراصنة أن يبحر بها وحده إلى ملقه ؟ إنه

لا يعرف شيئا عن المسائل البحرية .. فليبين لنا كيف سلك سبيله فى البحر ، وكيف

أدار القلوع ! ولقد زعم أن السفينة الصغيرة قد تحطمت قرب ملقه . . فهل لم يوجد

أثر لحطامها ! أو لم يوجد شهود ما ؟ هل استجوبه أحد عن موضوع إفلاته العجيب هذا ؟

فقال دى سيلفا بلهجة المستميت : إن كان ذلك ما تريد فلا تخف ، سأفسر كل شىء

واختم بدرو ضرباته قائلا : وأخيراً ، يستحب سؤال هذا الشقى المفلس من أين

تلك الأموال الطائلة التى ينفق منها على حاشيته الكبيرة فى طليطلة ؟

فضحك دى سيلفا بصوت أجش قائلا : أليس هذا الكلام صبيانيا ؟

بينما أردف بدرو : وفى هذا الصدد عندى شاهد جديد هو حارس السجن الذى استأجره دييجو دى سيلفا لقتل فى الليلة الماضية .. ولن يشهد الحارس بهذا فقط ، بل سوف يذكر أن هذا الرجل يتردد على بيت تاجر مزعوم فى ملقا من أصل يهودى يدعى بابلو ستونيجا وينبغى استجوابه لمعرفة الحقيقة ..

وفى هذه اللحظة حدثت مفاجأة لم يكن يتوقعها أحد .. فان دى سيلفا وثب خارجا من القاعة قبل أن يستطيع الحراس منعه ... وسمع صوته يتردد فى الغرفة الخارجية وكأنه يطارد شخصا .. وارتفعت ضجة من السلم الخارجى .. وفى اللحظة التالية تعالى وقع حوافر جواد صادراً من فناء القصر .

●●●

عاد الامبراطور إلى مجلسه بعد إن أصدر الأوامر اللازمة بمطاردة دى سيلفا ، والتفت إلى الاسقف فونسيكا بعد أن هدأت الضجة يقول له :

— ما قولك الآن وأنت تصير هذا الرجل ؟.

ولأول مرة انعقد لسان الاسقف ، ولم يجد إلا أن يقول متلعثما :

— لا شىء يا صاحب الجلالة .. إنى .. إنى أتبرأ منه ..

فقال المستشار جاتينارا وهى يخفى ابتسامته : وماذا يكون مصير التهم الموجهة ضد الكاردينال دى فارجاس بعد أن رأينا الشاهد الاول فيها .. ينسحب ؟

وأما الامبراطور فقد أمر بفك قيود بدرو قائلا : والآن يا سيدى اليك اعتذارى .

فتقدم بدرو وركع أمام الامبراطور ورفع يده إلى شفتيه قائلا :

— هل لى أن أطمع فى منة يا مولاى ؟. — اثنتان إذا شئت ..

— إنى أتمنى أن تتم المحاكمة ، لا محاكمتى وحدى ، بل محاكمة الجنرال كورتيز أيضا وسائر أفراد حملتنا ..

وإذا بدرو تأخذه الحماسة فجأة فيسترسل قائلا :

— إننا يا مولاى ، كما قال القائد العام ، لسنا ملائكة ولا قديسين ... ولا نحن كذلك من الشياطين ... بل كنا رجالا مستبسلين ، نقاتل قتال المستميتين ... وفى فورة الاحداث كانت لنا أخطاؤنا وهفواتنا .. وإنى ألتمس من إبن جلالتكم أن يحكم



علينا بما حققناه من أعمال .. فقد وهبنا أسبانيا امبراطورية هى الآن رهن أوامر جلالتكم . وكل ما ألتمسه الآن هو أن تأمروا بتشكيل مجلس عاجل لاعتبار أسقف بورغوس أعضاءه حتى لا يكون لهم من غاية سوى العدالة المجردة وحتى يفاضلوا بين فيلاسكيز وبين كورتيز ويقرروا أيهما أقوم عملا وأهدى سبيلا .. وانى أقسم بشرفى يامولاى أنا سنقبل حكم هذا المجلس قبول التسليم والولاء ..

فقال شارل : سيكون لك ما طلبت يا كابتن دى فارجاس .. لك أن تنهض ..

ولما نهض بدرو أردف الأمبراطور :

— قل لى شيئا واحداً .. هل جميع ضباط هرنان كورتيز على شاكلتك ؟ .

فأجاب بدرو فى تلعثم : إنى يامولاى كنت من أصغرهم سنا .. ولاسبيل إلى الحكم بالمقارنة بينى وبينهم .. هناك ساندوفال والفارادو وأوليد ومارات وثاليا وكثيرون غيرهم وليس لى من الجدارة ما يؤهلنى للاندماج فى سلكهم ..

— أحقا ؟ ..

فلما الأمبراطور باسما ، ثم التفت إلى جاتينارا ودون فرنسكو قائلا :

— لابأس .. سنضع هذا موضع الاختبار .. انى ماثل ملتمسا لم تطلبه يا كابتن دى فارجاس .. إنى أعهد اليك بمهمة إحضار دييجو دى سيلفا وتقديمه إلى العدالة .. حيا أو ميتا ..

## الفصل العاشر

لم يكن تعيين بدرو ضابطا من ضباط الدولة بأمر الأمبراطور شيئا مذكوراً بالقياس إلى الأمر الآخر الذى تلقاه وهو الذى خوله اعتقال دييجو دى سيلفا حيا أو ميتا

وقد ذهب بدرو عقب انصرافه مع والده إلى الفندق الذى نزل به دون فرنسكو يتشاور معه فى الموضوع ، فكان من رأى أبيه أن دى سيلفا قد أفلت إلى الحدود الفرنسية معتزما الالتحاق بالمتطرفين الذين يتعذر إدراكه فيها ، لكن بدرو خالفه فى هذا الرأى قائلا :

— إن مطاردة هذا الشقى قد انتهت فى داخل المدينة ذاتها ، ولم يره حراس الأبواب يغادر المدينة .. ولا يعدو أنه قرر الاختفاء فيها مؤقتاً ..

فقال دون فرنسكو : إنك تكلمت عمن يدعى تيتو القيرو واليهودى ستونيجا ..

— إني أتوقع القبض عليهما بين وقت وآخر .. ثم إني أرسلت في استدعاء حارس السجن الحبيث فلعله يعرف شيئا

لكن الأنباء التي جدت بعد ذلك لم يكن فيها مايشفي الغليل .. فان تيتو الصيرو وأعوانه قد اختفوا ، كما اختفى ستوتيجا .. ولم يحضر حارس السجن .. ثم عثر عليه رجال الحرس قتيلا بطعنة مدية في عنقه غير بعيد عن السجن ..

فلم يتمالك بدرو أن قال حين انتهى اليه هذا النبأ :

— لقد لقي هذا الشقي جزاءه العادل .. ومع ذلك فاني وعدته بالحماية !

● ● ●

وانهمك بدرو على الأثر في تقصي آثار دي سيلفا والقيام بحملات متتالية للبحث عنه .. ولكن جهوده في هذا الشأن طيلة شهر كامل ذهبت سدى ..

بل ان بدرو نفسه لم يلبث أن أصبح هدفا للعدوان على حياته بعد أن كان يستهدف حياة غريمه دي سيلفا .. فقد تعرض مرتين للاغتيال على أيدي قتلة مأجورين ، ولولا أن قميصه الفولاذي كان درعا تقيه طعنات الخناجر لما سلم من موت محقق

وفي هذه الأثناء عاد دون فرنسكو إلى جاين لكي يطمئن زوجته على ماانتهى اليه بدرو ولكي يذيع الأنباء السارة الصادرة عن دوائر البلاط .. فانه بعد أن دالت دولة الأسقف فونسيكا وتقلص نفوذه لم يستغرق وقتاً طويلا في المفاضلة بين مطالب كورتيز ومزاعم فيلاسكيز حاكم كوبا .. والواقع أن نتائج الاستكشاف والفتوح الباهرة قد جلت كافة الألسن حتى لسان التشريع الأسباني .. ولم يكن من حديث في أسبانيا وأوربا سوى تردد أنباء تلك الأعمال الباهرة التي اضطلع بها كورتيز ورفاقه ، والتي أضفت أمجاداً كثيرة على أسبانيا وجيوشها .. فلم يكن من المعقول في شيء إذن أن تنكر أسبانيا على هؤلاء القاهرين الباسلين الاعتراف بآثار أعمالهم وقضن عليهم بالمثوبة وحسن الجزاء وتؤثر عليهم رجلا مثل فيلاسكيز كل فضله أنه منح الحملة اسمه وساهم فيها بنصيب تافه يسير من المال ...

واضحى بدرو بعد ذلك يستمتع بنصيبه من هذا المجد وهذا التكريم للحملة ... وكان يقابل في دوائر البلاط بالحفاوة والترحاب بعد أفول نجم أسقف بورغوس والتاع نجم كورتيز ... وأبلغ ما يقال في هذا هو ذلك الوصف الذي دكردون فرنسكو



لأصدقائه ومريديه ومنهم المركيز كارفجال عن الاعلام على نجله برتية الفروسية :

« أرجو عفوكم أيها السادة ، ولكني أعد هذا تتويجا لفاخر حياتي ... ليشكم شهدتم ولدي في تلك المناسبة العظيمة ، إذن لرأيتم كيف بدا للأعين أهلا لكل تكريم وتمجيد ... ولقد أنعم عليه صاحب الجلالة بوسام صليب سنتياجو ومنحه رتبة فارس ووعده بقيادة كتيبة من الفرسان في إيطاليا ... وقد علمت أيها السادة من خادمة السيد جانيار مستشار الامبراطور أن هرنان كورتيز قد ظفر بالموافقة على كافة أعماله وأنه سيعين حاكما عاما ونائبا للملك في أسبانيا الجديدة ، وأن ضباطه ورجاله سيلقون كل تكريم واعلام ... بل أبلغني خادمة المستشار أن هذه النتائج العاطرة إنما كانت بفضل مساعي بدرو وجهوده ... »

بيد أن دون فرنسكو وأصحابه لو اطلعوا على حال بدرو بعد هذا التكريم الذي ظفر به لساورهم الدهش وتملكهم العجب ... فانه لم يجد في هذا كله سوى الخواء ولم يستشعر سوى الضجر والسأم .. فماذا بعد التكريم سوى الزواج ؟.. وماذا بعد الزواج سوى الحياة العسكرية في الجيش النظامي ؟.. وماذا بعد إيطاليا سوى العودة إلى البلاط من جديد ؟.. فهل أبعث من هذا على الضجر والسأم ، وأحفل منه بالفراغ والخواء ؟؟

وأنظر إليه وقد جلس ذات ليلة في المكتب الذي استأجره في طليطلة يتناول شراب الماء في كوب كانانا وهو يستعرض الماضي والحاضر رازحا تحت أثقال الضجر والملل ، مفكراً فيما قرره الامبراطور من إعادته إلى الكتيبة ليشرف بالنتائج السارة التي انتهت إليها سفارته لدى البلاط ... إنه لن يستطيع إذا هو عاد الى الكتيبة أن يستعيد سعادته الماضية وهي مرهونة بشخصين لا ثالث لهما : كانانا وجارسيا ... ومن الخير أن يتصرف إلى عمل جديد يبعده عن استذكار هذا الماضي المؤلم الأليم ...

وبينما هو غارق في تأملاته ويده تعبث بكوب كانانا ، ذلك الأثر الوحيد الذي بقي عنده منها ، إذ استرعى نظره شيء جعله يرهف حواسه ويركز نظراته في اسمها المحفور في الكوب .. فقد ظل بعد إتمام النظر إلى أن أحرف الكتابة واضحة للعالم وضوحا غير عادي ، وكان الأحرى أن تكون أغرب الى الغبي بعد استعمال الكوب في حانة روزاريو طيلة أزمنة أعوام ماضية .. لكن سانكو لويز قرر له أن هذا الكوب هو كوب كانانا القديم وأن الذي نقش الاسم عليه هو باكو سائق البغال .. فهل كذب

عليه سانكو لويز لكي يدخل السرور على نفسه ! وهل هذا كوب كانانا حقا ؟

ثم خطر له خاطر فجائي ، فأخرج من أوراقه تلك الرسالة الموجزة التي تركتها له كانانا في الكنيسك وأدناها من ضوء الشمعة وأخذ يدقق النظر إلى أحرفها.. وسرعان ما تلاحقت نبضات قلبه . . قد ألفى الخط هو نفس الخط المكتوب به اسم كانانا على الكوب .. لكن إذا صح أنها هي التي خطت اسمها على الكوب فأن ...

ووثب من مكانه الى حيث استخرج من أوراقه تلك الرسالة التي جاءته من سانكو لويز في جاين محررة بخطبا كو الزعوم.. رباه ..! إن الخط واحد متماثل أيضا !

يا للروعة ..! هل يفهم من هذا أن كانانا في أسبانيا ، وأنها زارت حانة روزاريو ، وأنها كاتبة الرسالة الخطيرة عن خيانة دي سيلفا وتواطئه مع القرصان ؟

شعر بدرو بدبيب حيوية جديدة يسري في كيانه .. ولمعت برهة بمحدج الرسالة بنظره .. فما أفاق إلا وهو يفتح باب الغرفة ويصيح بتابعه الجديد ( جيرياتو دافيلا ) الذي أطلق خدمته بعد الانعام عليه بمرتبة القروسية أن يستعد للسفر إلى جاين عند مطلع الفجر .. فلقي الرجل هذا الأمر بالامتثال ولكنه قال مشفقا :

— أترجو ألا تكون هناك أنباء سيئة يا سيدي ؟

— بل لعلها أحسن الأنباء .. وسنعرف الحقيقة في جاين .

## الفصل الحادي عشر

بعد ثلاثة أيام من السير الشاق المضني وصل بدرو وحاشيته المؤلفة من تابعه دافيلا وستة من الرجال الى بلدة لامنكه حيث قرر بدرو أن يمرجوا على فندقها للراحة مع جيادهم المكدودة ..

على أن بدرو لم يكد يدلف الى القاعة العامة بالفندق حتى انبعث صوت من ظلمات القاعة يقول : يا للقديسين ..! أية معجزة هذه يابني ؟ أي حظ سعيد جاء بك إلى هنا!

وشد ما كانت دهشة بدرو حين خرج اليه المتكلم ، فاذا هو الركيز دي كارجال ، وقد زادت دهشته حين ألفاه أشعث الشعر واللابس ، ولم يتمالك أن راح يقول له بدوره :

— كيف جئت إلى هنا يا صاحب الفخامة ؟ ماذا جرى بالله ؟ إني أراك مضطربا !

فتهالك كارجال فوق مقعده وتنفس الصعداء قائلا :

— ومن ذا الذي لا يضطرب يا بني حين يرى الموت يطالعه مدة ساعتين ؟ . .



ولحسن حظي إني رأيته قبل أن يراني وصعدت إلى فوق حيث لبثت مختبئا ! . وقد هرب خدمي الاشقياء وإن كان ذلك لحسن حظي أيضا ، فانهم لو شاهدوا شعاري لمزقوا شخصيتي . . وقد تشجعت بالنزول حين سمعت وقع أصوات جيادكم في الحوش ، وحسبت برهة أنه عاد . .

— لكن من هو بالله ؟

— هو صهري السابق دي سيلفا .. أدعو الله ....

فوقف بدرو مسمراً في مكانه وهو يقول : دي سيلفا ؟ . دي سيلفا ؟ .

— نعم ... وأدعو الله ...

— في أي طريق ذهب ؟ . إننا لم نصادفه في طريقنا ..

— في طريق جاين ...

— جاين ؟ .

— نعم ... مع خمسة عشر من الرجال الأشداء ، وكل منهم أصلب من أخيه ... وقد حسبت أول الأمر إنهم ذاهبون لاغتيال حياتي أو لاغتيال والدك ، لكني سمعت بعد ذلك دي سيلفا يتحدث مع من يدعى تيتو قائلا إنهم لن يدخلوا جاين خوفا من والدك العمدة ، وإنهم يديرون النزول في حانة روزاريو . . وقد بدا لي إنهم ساخطون على صاحب الحانة ( سانكو لويز ) وإنهم يعزمون احراقه على نار بطيئة ثم تدمير حانته ثم يقصدون بعد ذلك إلى غرناطة ثم إلى البحر

وما كاد بدرو يقف على هذه البيانات حتى نادى تابعه دافيلا وأمره بسراج الجياد والتأهب لاستئناف السير دون أن يبأ باعتراضاته عاقة هلاك الجياد . . ثم التفت إلى الركيز قائلا : متى سار دي سيلفا من هنا ؟ .

— منذ ساعة ...

فقال بدرو مخاطباً تابعه : منذ ساعة فقط ؟ . لن نكون رجالا إذا لم نقطع عليه الطريق ونفاجئه .. تذكر إن هناك مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يأتي برأسه . . وإني أضيف اليها ألفاً أخرى من عندي إذا وضعنا أيدينا عليه . .

وقد حاول الركيز أن ينهى بدرو عن تنفيذ عزمه مناشداً إياه أن يبقى لحمايته وهو الشيخ الاعزل ، قائلا إنه ماجاء إلى هذا المكان وماقام بهذه الرحلة إلا لخدمة بدرو ، واستطرد في البيان يقول :

— نعم .. فاني لم أكد أغادر فراش المرض حتى قررت أن أمنحك مساعداتي في

البلاط وأن أعمل على دوام رضائك . . وسوف تنال بفضل رعايتك وسهري على مصالحك أكثر مما نلت حتى الآن .. وربما ظفرت بلقب مركيز أو دوق ، لا مجرد رتبة الفروسية .. ان عندك الثروة ، وتستطيع بحسن استخدامها وإغداقها على من يعنيهم الامر أن تبلغ من الجاه والرفعة كل ما تريد ....

لكن بدرو لم يكن ملقيا بسمعه إلى هذا الشيخ الناقد الوصول ولم يحفل بالمغريات والوعود التي راح يزجيها في سخاء ، بل استأذنه في تلطف شاكراً له كريم شعوره وامتطى جواده وسار مع رجاله تاركا للمركيز بعض الأتباع من النبلاء والحشم . .

ولم يكن استئناف السير بالأمر الهين العسير على الرجال والجياد معا . . ولذلك لم يقطعوا غير بضعة فراسخ على بعد خمسة عشر ميلا من جايين حتى اضطر بدرو إلى التخلي عن رجاله لتعذر الحصول على جياد أخرى ، وواصل السير مع دافيلا وحده . .

وكانت الساعة تناهز العاشرة ليلا حين لاحت لهما أبراج بلدة جايين . وما هو إلا أن صارا على قيد نصف ميل من حانة روزاريو حتى خرج من الظلام على غير انتظار ثلاثة فرسان وقفوا برهة مترددين بين الهجوم أو الاتجاه إلى الحانة ، فصاح بهم بدرو :

— اسمعوا .. هل السيد دي سيلفا والسيد تيتو في المكان المعلوم ؟ ..

فرد أحدهم قائلا : ومن أنتم ؟ ..

— أصدقاء من طليطلة . . ومعنا أنباء سارة للسادة . . إن الكلب دي فارجاس قد نال ما يستحقه ..

— أحقا ؟.. — نعم ..

ودنا بدرو مع دافيلا من الرجال الثلاثة حتى باتا بمحاذاتهم . . وكان بدرو يمسك نهر اوته على أهبة العمل في الظلام .. ذلك وقد قال للمتكلم :

— إنهم سيرحبون بكم .. هناك أنباء سارة في الحانة .. يدهشني أن السيران لم تثب فيها بعد ..

وصاح بدرو صيحة مدوية وهو يهوي بالمراوة على رأس الرجل ويقبض بجواده الدرب على الثاني فيلقي به تحت حوافره ، بينما أحمد دافيلا خنجره في وجه الثالث ...

وقال بدرو وهو يواصل السير مع صاحبه تاركين بقايا المركة من خلفها :

— أجدت وأحسنت ! سنرى كيف يكون تأثير هذه الحيلة في فناء الحانة .. لاشك أن أحدهم يتولى الحراسة هناك



واشتد اشتعال بدرو حين دنا من الحانة .. فبدت ساكنة سكون القبور تحت السحب المتلبدة .. ولما زاد اقترابا خيل اليه أنه سمع هرجا بداخلها .. لكن لاريب أنه كان مخطئا ، فقد خيم على المكان صمت مطبق .. وعند ذلك دلفا الى الفناء دون أن يضيع الوقت في الحدس والتخمين . .

شاهد جياداً مربوطة في الأوتاد ، بيد أنه لم يشاهد أحداً يقربها حتى حانت منه التفاتة الى نوافذ القاعة العامة المضاءة ، فلمح شخصاً ينظر إلى الداخل وكان منهمكا في هذا فلم يتحرز حين تسلل بدرو ودافيلا عن جواديهما . . والظاهر أنه حسبهما من أفراد الحرس الخارجي .. على أنه حين أدار رأسه فاجأه سيف دافيلا فطاح به . .

وقذف إلى صحبهما صياح محتبس مقترنا بضحكات رنانة انبعث من داخل الحانة فبددت السكون .. فدنا بدرو وصاحبه من النافذة لينظرا ما يدور

كانت الوائد والمقاعد المحطمة المتناثرة في القاعة إلى جانب الأجساد الممددة على الارض خير شاهد على المركة التي دارت منذ قليل .. وإنما استرعى نظر بدرو مشهد النار الشبوبة في الدفأة وقد اجتمع حولها عشرة رجال بين جلوس ووقوف وتدلى عن كتب منها رجلان معلقان في السقف من أيديهما ، كما اهتزا برغمهما بفعل النار التي تلفح أقدامها تعالى من معذبيهما صياح السرور والاستحسان

وقال قائل منهم : هيا يا سانكوا .. ارفع عقيبك ! .. ما أرشق حركاتك رغم محنتك ! ..

لم يبق شك في أن دي سيلفا قد نفذ الوعيد الذي صمه المركيز يغوه به وهو حرق صاحب الحانة على نار بطيئة ... ولم تشب النار بعد في ملابس الفريسين ولكن الدخان أخذ ينبعث منها ... وقد عرف بدرو في أحد الرجلين سانكو لوبيز ، لكنه لم يكد يعرس في ظهر الرجل الثاني ذي المكيين المريضين حتى تملكه غضب هائل . . .

فقد كان جوان جارسيا ! ..

ثم وقع نظر بدرو على شخص ثالث ممدد فوق خوان ، وكان وجهه عنجيا ، ولكن بدرو استطاع أن يميز شعره الأسود ويديه الجامدتين ...

ولم يكن سوى كاتانا بيريز . .

لقد صحت ظنون بدرو حقا ... ولكنه جاء بعد فوات الأوان ...

شعر بدرو في هذه اللحظة بجنون عنيف شحذ كل حواسه . وإذا هو يرتد عن النافذة

ويقول لصاحبه : اسمع يا دافيلا .. هناك بالباب القاعة عليك بأحدهما بينما أدخل من هنا .. ولا تنس حين تفتح الباب أن تصيح وتكرر الصياح وكأن بالباب عشرة رجال .. ومهما يحدث فعليك أن تذكر دى سيلفا .. يجب ألا يفلت من أيدينا .. الآن ... هلم بنا ! ..

وقد توجه الرجال للثلاثة حول الدفأة بانفتاح البابين فى وقت واحد وعلى نحو عاصف مباغت ... واقترن ذلك بصيحات الحرب التى أطلقها بدرو مدوية رنانة حين اقتحم القاعة مع دافيلا ورواح يضرب بسيفه ضربات متلاحقة فيشج ويقر ويمزق ... وقد سقط رجلان ثم أعقبها ثالث ورابع ... ودنا بسيفه من مكان جارسيا ولويز فقطع حبالهما بضربات سريعة من خنجره . ثم التفت الى الأشقياء الروعين الشدوهين الذين راحوا يلوذون بالأبواب التماساً للنجاة من هول هذا الهجوم المباغت...

لكن أين دى سيلفا ؟.. هل أفلت بطريقة ما ؟.. هل كان خارج القاعة ؟...

وفجأة برز من ناحية المدخل شخصان متماسكان ملتحمان أخذا يدنوان من وسط القاعة وهما يترنحان هنا وهناك ..

لم يكونا سوى دافيلا ودى سيلفا وقد راح كلاهما يلتمس من غريمه مطعناً ومقتلاً . وما لبث دى سيلفا أن أوقع صاحبه أرضاً وأرعى فوقه شاهراً خنجره لكى يسدد اليه طعنة تجلاه من فتحة قناعه الفولاذى ..

وسرعان ما وثب بدرو إلى الأمام صائحاً .. لكن ضربة دى سيلفا لم تصدر قط . فقد قذفه أحدهم من الخلف بمقعد أصابه فى جانب رأسه وألقى به إلى الأرض لحظة انتهزها دافيلا فوثب عليه يبغى ذبحه ..

وحانت من بدرو التفاتة فصاح جارسيا ولويز يخرجان رحكضا فى أثر الاشقياء الهاربين ممن بقوا على قيد الحياة ... ورواح يقول وهو ينتزع قناعه الحديدى الذى انحرف عن وجهه فى حدة القتال الرهيب الخاطر :

— صبراً يا دافيلا .. لقد كسبت المكافأة ، لكن دع هذا الطلب لى !

وخلص دى سيلفا من قبضة دافيلا وأوقفه على قدميه ..

ووقف الغريمان القديمان برهة متواجهين وبينهما الماضى الطويل الحافل بأسباب الكراهة والغدر ... ورواح بدرو يقول بصوت أقرب إلى الفحيح :

— أتذكر يوم إن جعلتك تكفر لانقاذ حياتك التعسة ؟. لقد كنت أريد إذ ذاك



أن تصلى نار جهنم ... وأحسب لو أنى جعلتك تصلى هذه النار التى أعلمك لما ترددت فى الكفر من جديد .. لكن من حسن حظك أنى عاجز عن هذا بذلك اليمين التى يضطرنى اليها فى فاشل .. والآن صل على روحك إن أردت الآخرة !. صل عاجلا !.

وكان دى سيلفا يتلقى هذا الكلام كالح الوجه شاحبه .. وما لبث أن هجم على بدرو بغتة وأهوى بطرف خنجره على رأسه العارى وهو يقول : بل صل أنت أيها الوضيع !.

ولكن بدرو استطاع بحالة رأسه إلى الخلف أن يحيل الطعنة إلى جرح فى جبينه ورغم انبثاق الدم الذى حجب عنه الرؤية فقد استطاع أن يتخذ من معصم دى سيلفا ما جعله يقمد سيفه بكل قواه فى عنقه وفى منكبه ...

هنالك ترنح دى سيلفا وتهالك فوق ركبتيه ، ثم هوى على وجهه جثة هامدة .

## الفصل الثانى عشر

أخذ بدرو سيفه ووقف برهة ينظر إلى دى سيلفا صريعا تحت قدميه .. بيد أنه لم يفكر فيه فى هذه اللحظة ، بل كان يفكر فى كاتانا .. فان نوال الثأر بل كل ما يشتهيه الانسان فى الحياة يبدو بدونها شيئا تافها لا طعم له .

— بدرو ..

والتفت بدرو منتفضا .. فرأى وهو لا يكاد يصدق عينيه .. رأى كاتانا تنهض ممتدة يدها على حافة الخوان وهى منفرجة الشفتين شاحبة الوجه .

— كاتانا !

فقالت وقد أشرق محياها بتلك الابتسامة التى عهدها منها أبدا :

— ترى هل أنا ميتة فى عالم السماء : إنى أصبت بضربة شديدة حين ابتدأ العراك .

ودنا منها ، فما كادت ترى وجهه حتى هتفت : يا للعذراء ..! أنت مجروح !

— هذا لا شىء .. إنك أنت ..

لكنها أخرجت منديلا من جيبها قائلة : اجلس أيها السيد .. سأضمد رأسك

فحاول أن يعترض ، بيد أنها ألزمته الجلوس .. وفجأة أحس بدرو وكأنها لم تفترق قط .. فقد استشعر لمستها المعهودة حتى لم يتمالك أن قبل يدها .. وما كادت تفرغ من تضميد جرحه حتى وثب قائما واحتواها بين ساعديه وهو ينعتها بأحب النعوت .. ثم قال لها : إن لى معك حسابا طويلا .. لماذا رجعت الى أسبانيا بعد أن هجرتنى ؟

— بسببك ..

— فلم إذن اختفيت عنى ؟

— بسببك أيضا ..

— يا للشيطان .. ألا تفسرين ؟

ويقول لصاحبه : اسمع يا دافيلا .. هناك بابان للقاعة عليك بأحدهما بينما أدخل من هنا .. ولا تنس حين تفتح الباب أن تصيح وتكرر الصياح وكأن بالباب عشرة رجال .. ومهما يحدث فعليك أن تذكر دى سيلفا .. يجب ألا يفلت من أيدينا .. الآن ... هل بدا ؟ ..

وقد فوجىء الرجال الملتفون حول الدفأة بانفتاح البابين فى وقت واحد وعلى نحو عاصف مباغت ... واقترن ذلك بصيحات الحرب التى أطلقها بدرو رانالة حين اقتحم القاعة مع دافيلا وراح يضرب بسيفه ضربات متلاحقة فيشج ويقر ويمزق ... وقد سقط رجلان ثم أعقبهما ثالث ورابع ... ودنا بسيفه من مكان جارسيا والويز فقطع حبالهما بضربات سريعة من خنجره . ثم التفت من جديد الى الأشقياء الروعين الشدوهين الذين راحوا يلوذون بالأبواب التماساً للنجاة من هول هذا الهجوم المباغت...

لكن أين دى سيلفا ؟.. هل أفلت بطريقة ما ؟.. هل كان خارج القاعة ؟...

وفجأة برز من ناحية المدخل شخصان متماسكان ملتحمان أخذا يدنوان من وسط القاعة وهما يتزحفان هنا وهناك ..

لم يكونا سوى دافيلا ودى سيلفا وقد راح كلاهما يلتمس من غريمه مطعنا ومقتلا . وما لبث دى سيلفا أن أوقع صاحبه أرضا وأرسى فوقه شاهراً خنجره لكى يسدد اليه طعنة نجلاء من فتحة قناعه الفولاذى ..

وسرعان ما وثب بدرو إلى الأمام صائحا .. لكن ضربة دى سيلفا لم تصدر قط . فقد قذفه أحدهم من الخلف بمقعد أصابه فى جانب رأسه وألقى به إلى الأرض لحظة انتهزها دافيلا فوثب عليه يغمى ذبحه ..

وحانت من بدرو التفاتة فطح جارسيا ولويز يخرجان ركضا فى أثر الاشقياء الهاربين ممن بقوا على قيد الحياة ... وراح يقول وهو ينتزع قناعه الحديدى الذى انحرف عن وجهه فى حدة القتال الرهيب الدائر :

— صبراً يا دافيلا .. لقد كسبت المكافأة . لكن دع هذا الطلب لى ! .

وخلص دى سيلفا من قبضة دافيلا وأوقفه على قدميه ..

ووقف الغريمان القدودان برهة متواجهين وبينهما الماضى الطويل الحافل بأسباب الكراهة والغدر ... وراح بدرو يقول بصوت أقرب إلى الفحيح :

— أيذكر يوم إن جعلك تكفر لانقاذ حياتك النعسة ؟. لقد كنت أريد إذ ذاك



أن تصلى نار جهنم ... وأحسب لو أنى جعلتك تصلى هذه النار التى أمامك لما ترددت فى الكفر من جديد .. لكن من حسن حظك أنى عاجز عن هذا بتلك العين التى استطرق اليها فى فاصل .. والآن صل على روحك إن أردت الآخرة ! صل عاجلا !

وكان دى سيلفا يتلقى هذا الكلام كالح الوجه شاحبه .. وما لبث أن هجم على بدرو بغتة وأهوى بطرف خنجره على رأسه العارى وهو يقول : بل صل أنت أيها الوضيع !

ولكن بدرو استطاع بحالة رأسه إلى الخلف أن يحيل الطعنة إلى جرح فى جبينه ورغم انبثاق الدم الذى حجب عنه الرؤية فقد استطاع أن يتخذ من معاصم دى سيلفا ما جعله يعمد سيفه بكل قواه فى عنقه وفى منكبه ...

هنالك ترنح دى سيلفا وتهالك فوق ركبتيه ، ثم هوى على وجهه جثة هامدة .

## الفصل الثانى عشر

أخمد بدرو سيفه ووقف برهة ينظر إلى دى سيلفا صريعا تحت قدميه .. بيد أنه لم يفكر فيه فى هذه اللحظة ، بل كان يفكر فى كاتانا .. فان نوال الثأر بل كل ما يشتهيه الانسان فى الحياة يبدو بدونها شيئا تافها لا طعم له . — بدرو ..

والتفت بدرو منتفضا .. فرأى وهو لا يكاد يصدق عينيه .. رأى كاتانا تنهض معتمدة بيدها على حافة الخوان وهى مفرجة الشفتين شاحبة الوجه . — كاتانا !

فقالت وقد أشرق محياها بتلك الابتسامة التى عهدها منها أبدا :

— ترى هل أنا ميتة فى عالم السماء : إنى أصبت بضربة شديدة حين ابتدأ العراك . ودنا منها ، فما كادت ترى وجهه حتى هتفت : يا للعذراء ..! أنت مجروح !

— هذا لا شىء .. إنك أنت ..

لكنها أخرجت منديلا من جيبها قائلة : اجلس أيها السيد .. سأضمد رأسك

وحاول أن يعترض ، بيد أنها أزمته الجلوس .. وبغتة أحس بدرو وكأنهما لم يفترقا قط .. فقد استشعر لمسانها المعهودة حتى لم يتمالك أن قبل يدها .. وما كادت تفرغ من تضميد جرحه حتى وثب قائما واحتواها بين ساعديه وهو ينعتها بأحب النعوت .. ثم قال لها : إن لى معك حسابا طويلا .. لماذا رجعت الى أسبانيا بعد أن هجرتنى ؟

— بسببك .. — فلم إذن اختفيت عنى ؟

— بسببك أيضا .. — يا للشيطان .. ألا تصدقين ؟

— نعم .. لكن من هذا السيد ؟

نسى بدرو فى غمرة السعادة دافيلا .. فدعاه الى جانبه وقدمه اليها .. فانحنى الشاب أمامها وهو فى تعجب من هذا الانفعال الشديد الذى طرأ على متبوعه بسبب رؤيته هذه الفتاة السمراء الرشيقة ملابس الرجال .. وقالت كاتانا فى قلق : ماذا جرى لجوان وسانكو ؟

فأومأ بدرو برأسه إلى فناء الحانة حيث كانت المعركة الحامية فى دور التصفية .. وإن هى إلا برهة حتى انبعث من الباب صوت داو رغان يقول صاحبه :

— يا للخنازير ..! إنما قضينا عليهم إلا ثلاثة منهم .

وظهر فى الباب جوان جارسيا بهيكله الضخم محتقن الوجه منفوش الشعر ممسكا باحدى يديه سيفا وبالثانية بلطة .. على أنه ما كاد يرى بدرو حتى تخلت يداه عن السلاح ووقف برهة منعقد اللسان ، ثم بسط ذراعيه صائحا بأعلى صوته :

— يا للقديسين ..! من يكون غيره ؟

وهجم على بدرو كالجبل المتحرك يضمه إلى صدره ويكاد يحطم أضلاعه غير عابئ باحتجاجه وراح يقول : كيف جئت بالله إلى هنا هذه الليلة أيها الرفيق الحبيب ؟

فقال بدرو ضاحكا : كفى عناقا يا هذا ! من حسن حظى أنى لابى درعى وإلا حطمت أضلاعى ! لكن كيف حالك وسانكو ، أعنى بعد النار ؟

— مازلنا على قيد الحياة يا بنى كما ترى ، بفضلك .. ولكن كانت نهايتنا قريبة ..

وغلى عنه وطوق كاتانا بساعده قائلا :

— حبذا من الأموات ، يا بنيتى حين اطمك ذلك الكلب بقبضة خنجره ..

ثم استغرت نظراته على جثة دى سيلفا وقال : لكنى أرى الحساب قد سوى جميعه

واسترسل يقول بلهجة الاعتذار :

— لقد فوجئنا بالهجوم أيها الرفيق .. ولذلك لم نقاتل القتال الجدير برجال حملة

فقال بدرو وهو يسرح نظراته فى آثار المعركة الماثلة فى أرجاء القاعة :

— بل يبدو لى أنكم أبليتم أحسن البلاء .. ماذا حدث بالضبط ؟

ووقف بدرو على القصة من أفواه ثلاثتهم : جارسيا وكاتانا ولويز .. مجيء الأشقياء على غير انتظار .. وهجومهم شاكى السلاح .. والمعركة القصيرة التى خاضها الثلاثة ثم غلبوا على أمرهم وهم غير سلاح .. ثم اعتقال نزلاء الحانة الفزعين وحبسهم مع الخدم فى البدروم ..



وأردف لويز قائلا : ثم حدث بعد ذلك ما رأيت يا سيدى .. يالصبيق فى الحانة ! .

انهم حطموا وأتلفوا كل شىء ؟ من ذا الذى يجىء إلى روزاريو بعد هذا ؟

فوضع بدرو يده على منكبه قائلا : لاتحزن يا سانكو .. سأتكفل بالمصاريف مع خسارة جنيه كتعويض .. لايليق بى أن أصل أقل من هذا بعد خدمتك العظيمة لى

وقال جارسيا : والآن أريد أن أعرف كيف جئت إلى هنا ؟ وأريد أن أعرف شعورك وقد أصبحت فارسا تلقب باسم صاحب السعادة دون بدرو ؟ فقال بدرو :

— وأنا أريد أن أعرف أكثر من هذا .. أريد أن أعرف ان كانت كاتانا قد أصبحت زوجتك ؟ فقال جارسيا غاضبا : وما رأيك أنت ؟

وأما كاتانا فقد ابتسمت .. فكان فى ابتسامتها الجواب الشافى .. وقال بدرو :

— فى رأى ياجوان أنك مغفل يشار اليه بالبنان بعد أن ضيعت فرصة لن تسنح لك مرة أخرى فى العمر ! .. ثم استطرد يقول وعيناه تنظران إلى كاتانا :

— لكنى أريد أن أعرف أكثر من هذا .. وستنال بعضهم درسا لاتنساه اذا لم تعطنى كل جواب شاف ... (سانكو) ! . ضع لنا شمعة فى الغرفة الخلفية ... أن لى كلاما أقوله لهذه الفتاة ! .. ولايتدخل أحد منكم اذا سمع اصوات الاستغاثة والألم ..

فقال جارسيا : هذا هو الكلام المعقول ! ..

ما كاد الباب يقفل دونهما حتى وقف بدرو ينظر طويلا الى كاتانا وهو لا يكاد يصدق انه فى عالم اليقظة حقا ... وفجأة طوقها بساعديه وضمها الى صدره طويلا حتى تهدل شعرها واحمر وجهها ...

ثم أجلسها عن كثب منه وقال وهو يتكلف الخشونة : والآن على بالبيان للشهود

— كان ينبغى أن تفهم من تلقاء نفسك أيها السيد ... إنى لم استطع البقاء فى (اسبانيا الجديدة) بعد ارتحالك ... ولم يبق بد أن أكون حيث أستطيع رؤيتك بين وقت وآخر ... فما كانت الحياة ممكنة بدونك ... وقد بدالى ان رؤيتى لك لا تؤذيك فى شىء مادمت لاتعرف انى عن كثب منك .. وقد جئت مع جوان فى سفينة تجارية ووصلنا الى جاين قبلك ... ثم رأيتك وأنت تسير فى موكبك الحافل فى البلدة ...

— أحقا ؟ .. لكنك قلت ياكاتانا أنك باقية فى الدنيا الجديدة ! .. وقد رفضت أن تتزوجينى ! .. أنى لاأفهم ! ...

— ألا تفهم حقا أيها الحبيب ؟ ...

— نعم ... لقد كنت مغفلا اذ لم أرزمك ان تتزوجني في الكسيك ...

— كلا ... لو فعلت لارتكبت خطأ عظيما ، وما كنت الا عفة في رفضي ... لكن اصغ الى الباقي .. سمحت حديثك هنا مع سانكولوريز حين زرته بعد عودتك .. وكنت قبلة معتزمة الا تعرف قط بوجودي في اسبانيا ... لكن لهجتك كانت افصح من كل كلام ، وقد فهمت أنك بعيد كل البعد عن السعادة الخفة ...

ثم توقفت عن السرد فجأة وهي تقول :

— لكن من أخبرك بوجودي هنا ؟ .. كيف توصلت الى هذا ؟ ..

فدتها بما كان من مضاهاته الخط الذي خط به اسمها على الكوب ، بخط رسالتها الوداعية في الكسيك ، وخط الرسالة التي جاءته من سانكو لوريز ثم أردف قائلا :

— لقد انقذت حياتي بهذه الرسالة ياحبيبتي ... ولولاك لذهب عنق الى الجلاد!..

ولم يطل بهما الوقت حتى انضم اليهما جارسيا يعرب عن سعادته باجتماع الشمل ويلوم بدرو على ما كان من عنادة عما أوصلهم إلى هذا الموقف الرتيب .. فماهو ذا بدرو يوشك أن يتزوج النبيلة لوريا ويتخذ من كاتانا عشيقة له ، ولو أنه بقي في الكسيك لكانت زوجته الشرعية ولأقام ثلاثتهم ينعمون في الدنيا الجديدة بالأراضي والجاه والثراء العدود ... فقال بدرو :

— لا لوم على ما فات .. أمامنا المستقبل عريض الآفاق ... لعلك لا تعلم أن جلالة الامبراطور قد عهد إلى بابلاغ كورتيز أمر تعيينه في منصبه الجديد كنائب للملك في الدنيا الجديدة ؟..

— ما ذا ؟!.

— نعم ... وسنذهب إلى أشبيلية قريباً جداً ... ثم نقصد إلى طليطلة لتلقي مراسم التعيين ... فقال جارسيا في ذهول وهو لا يكاد يعي ماسمع :

— لكن معنى هذا أنك ستجر الى أسبانيا الجديدة أيها الرفيق ؟ ..

— لم يدر بخلدي قط أن أكون بعيداً عن الجنرال كورتيز ..

فاشتد ذهول جارسيا حتى ذهب بهدر ويلطم الخوان بقبضته من شدة الفرح ... بيد أنه ما لبث أن عاد الى التجهم قائلا :

— لكن نسيت لوريا ؟.. أنها خطيبان !.. ماذا أنت فاعل ؟..

فالتفت بدرو الى كاتانا قائلا : — قد ذكرتني بشيء ... أين ثوبك النسائي؟..



فأشارت الى دولاب في أقصى الغرفة .. فأمرها أن تخلع زي الرجال وتعود الى ملابسها النسائية فلما سألته عن السبب قال بحد الحاح :

— لأنه لا يوجد قسيس يرضى أن يعقد زواجي بك وأنت بالبنطلون ؟..

— قسيس !.. — نعم ، قسيس ... هناك قسيس في القرية المجاورة ... وسننزعه من الفراش حتى ولو علقناه من رجليه !..

فقالت كاتانا لاهثة الأنفاس : — لكن لأي سبب ؟..

— لأنك تعلمين جيداً أني أقسمت ألا يجمعنا فراش واحد حتى نعقد زواجنا ... فهل ترين أن أحنث يميني ؟..

— لايمكن أيها السيد أن تخلف عهدك للسيدة لوريا .. هذا شيء لايشرفك .. لم يكن في نيتي قط أن أتدخل بينك وبينها .. كلا ياسيد .. إن الله ينهى عن هذا .. لايمكن أن أدعك ....

— صه ..

وأقبل عليها يجذبها من شعرها حتى علا صراخها وهو يقول: سأعطيك درساً لن تنسيه .. هل تجبرين أن تطيعني مرة أخرى ما يجب وما لا يجب ؟.. سأتم هذا الأمر وفق مشيئتي ، ولو اضطررت إلى حملك تحت ذراعي .. أسرعي بتغيير ملابسك ..

وقال جارسيا راضيا : نعم .. هذا ما كان يجب أن تفعله منذ عام ..

وخرج جارسيا لاعداد الجياد .. فلما أتت كاتانا إبدال ملابسها وبدت في أبهج فتنها لم يتمالك أن ركع أمامها يقبل يدها تائبا مستغفراً .. فهونت عليه قائلة :

— إني لا أصدق ما سمعت .. أأكون زوجتك ؟ .. هل سنقضي ليلتنا هنا ؟ ..

— كلا .. بل سننام في بيت والدي ..

فقالت وقد شحب محياها فجأة : ليس هذا بسيدي .. اني لأجبر .. اني أموت خجلا .. لاتفعل هذا بالله ..

— بل سأفعل .. ستركبين معي على ظهر كميدور .. أما عن الخجل فلا محل له .. انا سننام في بيت والدي لأن هناك مكان زوجتي ..

## الفصل الثالث عشر

تولى قسيس القرية عقد زواج بدرو وكاتانا وهو موزع النفس بين الخوف من الأسقف الذي يمتد على سلطته بهذا العقد ، والرهبة من قبضتي جارسيا الضخمتين ..

وكان جارسيا وسانشكو لويز ودافيلا هم شهود الزواج ..

وبعد تمام العقد أقبل الثلاثة على العروس يهنئونها ويتبارون مراراً وتكراراً حتى التهبت شفتاها وراحت تقول ضاحكة :

— يا إلهي .. إني أشعر من وخز لحاكم كأن فمي قد شكته آلاف الأبر ..

ولم يشأ بدرو أن يضيع دقيقة من وقته ، فقد استقل جواده على الأثر وأردف كاتانا خلفه بعد أن تواعد مع جارسيا ودافيلا على اللقاء صباح الغد في ضواحي جاين في الطريق المؤدية إلى قرطبة ..

● ● ●

لم يتمالك بدرو لدى وصوله مع كاتانا إلى بيت والده في جاين أن ساورته المخاوف عما قد يفضي إليه مقارعة أبويه في هـذا الزواج . والحق إنه شعر بالبرق البـارد يسري تحت أبطه وهو يدلف إلى البيت مع كاتانا من الباب الخلفي ...

كان السكون المطبق يخيم في أرجاء الدار .. وقال بدرو لكاتانا وهو يصعد بها إلى الطابق العلوي : سأذهب بك إلى غرفتي .. ثم ننتظر بعد ذلك ما يجب أن نفعل ..

بيد أنهما ما كادا يصطدمان في المشى العلوي بخادم كان راقداً أمام باب غرفة دون فرنسكو .. حتى نهض الخادم مذعوراً يحملق في كاتانا ، ثم حيا سيده في تلعثم ، فأمره بدرو باحضار شمعة إلى غرفته ... فلما دخلها مع كاتانا وجيء بالشمعة لم تمالك الفتاة ان تهالكت على مقعد متخاذلة .. فقال بدرو يشد عزمها : مالي أراك باردة كالثلج أيتها الحبيبة ! . لا تخافي !.

وسمع صوت معهود يقول في مدخل الغرفة :

— هل عدت يا بني دون أن تخبرني سلفا بعودتك ؟ .. من حسن الحظ أني كنت مستيقظا ... ما هذا ؟ أراك مجروحا !..

ثم تغيرت لهجة التكلم ، وقال في صوت له صلابة الفولاذ :

— وحق العذراء ! . يظهر أني تخلفت ! . من تكون هذه المرأة ؟.

## الفصل الرابع عشر

بدأ دون فرنسكو في ملابسه القبة مهيبا كالستر في أهاب قاس ... وكانت عيناه الثاقبتان ترسلان سهاما وهو يكرر سؤاله بينما ارتج على بدرو وانعقد لسانه وراحت كاتانا تشد على ذراعي المقعد بيديها ..



وقال بدرو أخيراً وقد تمالك : لي الشرف يا سيدي الوالد أن أقدم لك زوجتي ، دونا كاتانا دي فارجاس ...

لم يتمالك الشيخ الوقور من الانتفاض رغم شدة جلده ... وانتضت برهة قال بعدها لهما : كيف ؟ ..

فاعتجر بدرو يشرح ويفسر .. ومضى الشيخ يحدج بنظراته كاتانا الساكنة التي كان أهون عندها أن ينقض السقف على رأسها من أن تحتمل نظراته النافذة الصارمة. فلما فرغ بدرو تقدم دون فرنسكو نحوها وهو يقول بصوت يحتمل أشتات المعاني :

— كاتانا بيرز ! .

وعند هذا الحد تحطمت أعصاب كاتانا ، فركعت أمامه وراحت تقول :

— عفواً يا صاحب السعادة .. عفواً ومغفرة .. إن الذنب ذنبي .. ما كان يجب أن أعود .. لكني لم أستطع صبراً .. على أني لم أكن أريد سوى رؤية سيدي بدرو مرة أخرى ، ولم يكن في نيتي أن يحصل هنا ، فلا تلمه يا صاحب السعادة . العفو العفو !

وغمغمها أشد الرعب حين لمحت يديه الفولاذيتين تمكان بها من تحت إبطيها وترفعانها إلى قدميه .. وما لبث الرعب أن استحال إلى ذهول عند ما شمها دون فرنسكو إلى صدره وقبلها في وجنتها .. وسمعه يقول :

— وعلام العفو يا ابنة ؟ ! ألأنك أنقذت حياتي وشرفي ؟ أم لأنك أنقذت حياة زوجتي وولدي ؟ أم لأنك أحببت هذا الشقي وأحبت منه طفلا ؟ أم لأنك ستمنحينه السعادة وتردين إليه حبه للحياة ؟ الحمد لله إن الفرصة قد سنحت لي الآن لكي أشكر لك كل ما فعلت لأجلنا جميعا ..

لم يصدق بدرو سمعه .. فقد كان قصارى ما يطمع فيه أن يجد من أبيه خضوعا للأمر الواقع وتجاوزاً عما كان .. أما أن يجد منه الحماسة فذلك ما فاق عنده كل تقدير .

وقال له مترددا وقد حتى أن يكون قد فاته الالمام بحقيقة الموقف :

— لقد خفنا يا سيدي أن تغضب مني بسبب خطوبتي للدون لويزا ..

— وعلام أغضب ؟ إنك عاهدت أولا كاتانا بيرز .. ولو أنك لم تتزوجها لما كنت إلا رجلا شريراً ، بل مغفلا كبيراً .. لأن كاتانا خير من الاخرى اتساعة روحا وخلقا ..

ولما جاءت دونا ماريا لم تقل من زوجها حفاوة بالعروس حتى أصرت على أن تهيء لها بنفسها غرفة النوم . .

وراح بدرو يحدث والده بما صادفه فى ليلته هذه من أحداث جسام .. فما سمع دون فرنسكو بصرع دى سيلفا زاد سروره وتضاعف ابتهاجه .. وعرج بدرو على ما كان من أمر المركيز كارفال .. ولم يجد حرجا من مكاشفة أبيه بحقيقة موقف هذا الرجل منذ أزمة أعوام حين لجأ اليه بدرو مستنجدا فتخلى عنه بنذالة . . فقال دون فرنسكو :

— ليتنى عرفت هذا من قبل .. اذن لما خدعنى هذا الرجل المنافق .. لكن دعه لى ، فانى سأعرف كيف ألزمه الصمت إذا احتج على فسخ الخطوبة

وأقر دون فرنسكو عودة بدرو الى أسبانيا الجديدة ، وقال أنه قد يلحق به فى المستقبل متى انتهت خدمته فى جاين

وإن هى الا دقائق حتى انسحب الوالدان وتركا للبدان المرهقين حرا طليقا ..

## الخاتمة

وقف دون فرنسكو دى فارجاس ممتطيا جواده على ربوة تشرف على طريق قرطبة يشهد موكب الفرسان المتجه غربا فى ضحوة النهار ... وانما تركزت نظرات هذا الشيخ الفتيد فى ثلاثة كانوا طليعة الموكب ، وما هم الا جارسيلاسو وبدرو وبيتهما كانا فى ظهر معلميهما

لقد أغنى الشيخ بنظراته شاعت فيها الرقة وأعمقها الحنين إلى الماضى . . . إنهم كانوا أروع صورة للشباب الزاخر بالحيوية والآمال . . انهم يجدد الوطن وعدته يستقبلون أمواج المحيط بأسطول رفعته رافعين لوائه فى أرض الله الواسعة . . فما أبعد البون بين الماضى الدابر الولى والمستقبل الزاهر العريض . . وما أجدر هذه النفوس الفتية المنطوية على عناصر البسالة والتعلق بالمجد والشرف أن تشيع بأحر الدعاء وأصدق التكريم والاجلال ..

وشيعهم بنظرة أخيرة .. فما إن رآهم يقفون بمنعطف الطريق ملوحين اليه بأيديهم حتى رفع قفازه يحييهم تحية الوداع . .

( تمت )

# الرسالة

المجلة التي اختصت بالمسة الطبقة على اختلاف أنواعها

تتابع إصدار أعدادها المتازة بنجاح متصل

أحدث الأخبار

أخبار كتاب العالم

العدد ٧٠١ الأحد ٣ أبريل ٩٤٩

الامتياز باسم : م عبد العزيز رئيس التحرير : عمر عبد العزيز أمين

مطابع دار الجيب بالقا